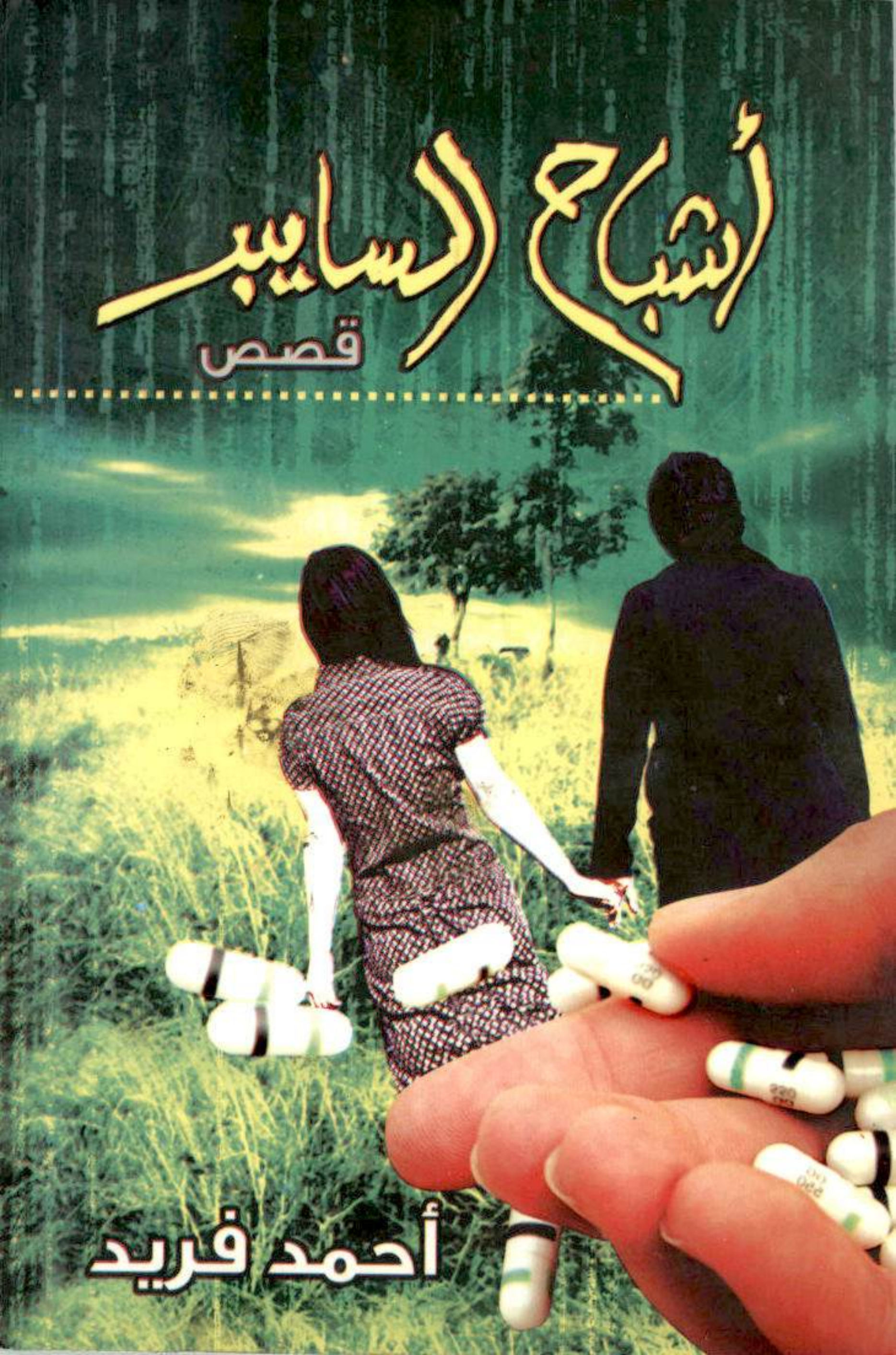
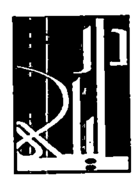

أشباح السايبر
قصص
أحمد فريد

٢٣٧٩٠٢

أشباح السايبر

أحمد فريد

الكتاب:
أشباح السايبر
التأليف:
أحمد فريد
رقم الإيداع:
2009/23260
• • •
التدقيق اللغوي:
عماد غزير
التنفيذ الفني:
حسام سليمان
• • •
الإشراف العام:
محـمد سامي



دار ليلى
جمهورية مصر العربية
23 ش السودان- المهندسين
هاتف:
33370042
محمول:
0123885295
الموقع:
www.darlila.com
البريد الإلكتروني
mail@darlila.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

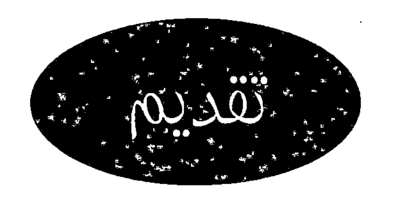
أحمد فريد

أشباح السايبر

قصص

دار ليلى للنشر والتوزيع




تقديم

التجربة الأولى.. المولود الأوّل.. الكتاب الأوّل..

لا شك أن للأمر متعة لذيذة. فمن بين جميع المرّات دائمًا ما يكون للمرة الأولى رونق خاص. وهذا الأمر لا يتعلق بالنتيجة بقدر ما يتعلّق بالشعور المصاحب للتجربة نفسها.

شعور غريب أن أرى أوّل كتاب لي الآن.. بين يديّ. عندما أقلب صفحاته، وألمس أوراقه، وأقرأ حروفه، أشعر لوهلة أنني لست الذي فكر وكتب. كأنما هناك شخص آخر يحيا بداخلنا، ويظهر فقط أثناء العمل الكتابي. ذلك الشخص الهلاميّ نافذ متوغل فينا إلى درجة أنه يرى بأعيننا، يسمع بآذاننا، ويشعر بانفعالاتنا، فيستمد غذاءه من حواسنا. ثُم يدون كل ذلك في مكان أمين بحيث يخرج أثناء الكتابة فجأة وبأغرب طريقة.

وتلك هي المتعة الحقيقيّة في الأمر. أن تشعر بيدك وعقلك وكيانك كآلات منزوعة الإرادة أمام الورق. بل كأن الشخص الآخر هو الذي يفكر ويدبر و يخُط الحروف والتعبيرات والأحداث بصورة شبه

مستقلّة. خاصةً بعدما يعاندك القلم في البداية، كأنما اختفى ذلك الكيان الآخر داخلك قابعًا في ركن بعيد من ذاتك، ينتظر إشارة أو شرارة ما، ليحترق غلافه العازل وينطلق لاهثًا على خيوط الورق الممتدة كبحور ساكنة تنتظر مد القلم وجذره، لتُحرّك أمواج الإبداع.

وكعادة أيّة مرّة أولى –بصرف النظر عن نتيجتها– تكون هناك شخوص هي السبب المباشر في وجود الحرية لك في اختيار طريقك. وهناك شخوص أخرى قد وفقك القدر بلقائها حتى تنير لك ذلك الطريق.

نبدأ من النوع الأوّل.. والذي أدين له بوجودي:

إلى أبي .. الذي قدم لي الدعم بكل جهد ممكن بل وغير ممكن أيضًا.

إلى أمي .. التي لن تكفي أيّة كلمات في مُجرد إحصاء ما قدمته وتقدمه لي.

أما النوع الثاني.. الذي هبط بهذا الكتاب من مرتبة الحُلم إلى الواقع:

أوّلهم بالطبع هو المبدع الكبير دكتور نبيل فاروق .. والذي

علمني كيف أقرأ.

العبقريّ دكتور أحمد خالد توفيق .. الذي وسع مداركي وثقافاتي بكتاباته الواعية.

أخي العزيز جدًا دكتور محمد الدسوقي الذي أخذ بيدي في وقت عصيب في حُلمي. وأخذ يمدني بكل ما يملك من زاد الأدب الذي برع هو في استخدام أحد أقوى أسلحته وهي القصة القصيرة. فهو الوحيد الذي أدين له بالفضل لاستمراري في الكتابة إلى الآن.

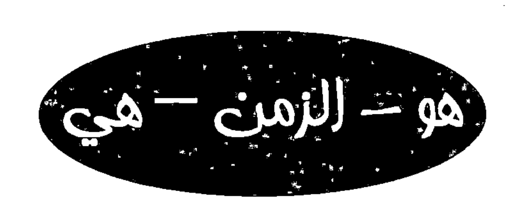
كما لا أستطيع أن أنكر فضل كثيرين آخرين كانوا بمثابة وقود لمحاولاتي المستمرة في كتابة شيء ذا قيمة: حسام عماد .. عبد الصمد الغزواني .. عمرو عز الدين .. أشكركم.

هكذا وبعدما أهديت "تجربتي" إلى كل من أثروا في وجودي، يمكنني أن أتركك الآن عزيزي القارئ تقرأ ما تشاء من الكتاب بنفس مطمئنة.

لا تقلق فلن أزعجك بعد —أتمنى أن يروقك الكتاب— الآن!

أحمد محمد فريد

amfirst@hotmail.com


هو – الزمن – هي

يقف في الصف، مُنتظرًا دوره.

على الرغم من ازدحامه -كان المكان مُكيفًا رطبًا، مما يبعث في النفس شعورًا بالانتعاش.

تطلع إلى المكان حولهم. كان عبارة عن قاعة فسيحة بحجم ملعب كرة قدم. جدرانها لها لون أزرق نيلي منعش. ويسطع من قبتها الدائرية الضخمة شلال دافق من الضوء الأبيض، فيبدو من العلية كشمس صناعية تمد الصفوف المُنتظرة بالحياة والأمل.

انخفض بشعاع بصره، فارتد عن واحد..اثنين.. ثلاثة.. خمسة عشر عمودًا موزعين بطريقة متناسقة. تحت كل عمود طابور طويل، كمسبحة عملاقة من البشر تنتظر كل حبة فيها دورها.. تنتظر دخول الكابينة عند سفح كل عمود، حتى تنفرط بعيدًا عن الجموع، ولتتصرف كل منها ككون منفرد من المشاعر والأحاسيس، وليس مُجرد حبة ضئيلة في مسبحة طويلة. داخل الكابينة يتصرف

كل بشريّ كأيّ بشريّ جائع متعطش إلى الذكريات، وليس كحيوان شارد في قطيع طويل –من أجل غذائه.

و هاهو يقف مثله مثل غيره مُنتظرًا دوره.. متى سيأتي؟ – قاس بنظره المسافة البشرية التي تفصله عن الكابينة– عشرة أشخاص؟ ليست كثيرة..

يسمع همهمات البشر حوله. وترى عيناه السابحتان بلا روح جاره في الصف الموازي يُكمل:

–"كان ولدي عنيدًا..نعم كان كذلك.. وقد أودى به عناده إلى الهلاك.. لكم عذبني غيابه عنيّ.. ولكم سهرتُ ليالي طويلة أدعو الله أن يهديه.. وأن يُعيده إلي سالمًا.. ولكن كما ترى.. لقد مات ولدي.. مات وأورثني بدلًا من أن يرثني.. أورثني الخوف عليه.. والخوف علي نفسي من حساب الله لي على تقصيري تجاهه.. نعم يا أستاذ (علي) لقد قصرت.. وها أنا بعد كل هذا العُمر أنتظر سماع صوته ولو للحظة.. عندئذ سأقول له جملة واحدة: أنا آسف يا بني..آسف".

كانت ملامح الرجل تهتز وحدها، وكأن لكل خط منها إرادته الخاصة، مما جعل وجه الرجل المتغضن كقطعة جلد ميتة تشدها

خيوط غير مرئية.

أثارت هموم الرجل نفس (علي) الشاردة، ودفعته إلى حافة قارب ضعيف وسط بحر هائج من السوداوية. فعجز تمامًا عن مجاوبة الرجل بأيّة مواساة.

هل هذا ما كان ينقصني؟!

كان الكل يملأ آذان الكل كبئر عميق يسكب فيه همومه بالأطنان. الكل يروي ولكنه ليس كذلك.. الكل يسمع.. ولكنه ليس كذلك. فالكل لا يفعل شيئًا سوى أن يتذكر همومه.. ويتألم.

مسح (علي) العرق البارد الذي تناثر على جبهته، فابتلت يده به، فمسح يده ببنطاله. نعم، إن هذا هو ما يفعله بالضبط: إنه يمسح على منطقة بعيدة من ذاته، فيبتل كيانه بها، ليمسحها على صفحة الواقع، تمامًا كعرقه.

و هاهو ينتظر مسحته الأخيرة في صبر.

هل كان عليّ أن أنسى كل شيء؟! هل كان عليّ ألا أحيي الماضي؟!

حاول (علي) إقصاء تفكيره المحموم عن تلك النقطة– مؤقتًا،

فوجد عقله ينطلق متخبطًا بين جدران مطاطة من الذكريات العشوائية.

(علي أبو العنين) مُحاسب بشركة (هولوكوم) "شركة البث الهولوجراميّ الموجه" وظيفة بسيطة في زمن معقد سيطر فيه العلم على كل جنباته، وظيفة سهلة يستطيع أيّ كمبيوتر تنفيذها بسهولة وعلى أكمل وجه، ولكنها الثورة الشعبيّة الأخيرة التي طالبت بتقنين استخدام الحواسيب من أجل تخفيض نسب البطالة المتزايدة، الثورة التي أطاحت بنظام الحكم السابق، ومنحت المجتمع توازنه مرّة أخرى.

لقد منحه عقله المتوسط هذه الوظيفة البسيطة بسهولة مُجرد جمع وإحصاء الأرقام، هذا عمل رقميّ مُجرد، لا مجال فيه للابتكار والإبداع، بعكس معظم مهن هذا العصر.

سمع الصوت الهادئ المتردد في سماء القاعة، ولكنه لم ينصت..

-"خدمة جديدة تقدمها لكم الشركة الوطنية للاتصالات..

برتوكول الصوت عبر الزمن.. الآن باستطاعتك مكالمة أحبابك

وأصدقائك المتوفين عبر الزمن!.. فقط بمائة وحدة شرائية.. يمكنك تزويدنا برقم الهاتف الخاص بفقيدك والسنة التي كان يحمل فيها هذا الهاتف.. مصحوبًا باليوم الذي تُريد فيه الاتصال.. شريطة ألّا تكون مُتواجدًا برفقة المتلقي وقت المكالمة.. وأن تكون المكالمة قبل عام 2093م.. بعدها سنعطيك موعدا لزيارتنا من أجل إتمام اتصالك.. فقط!..

يمكنك إجراء الاتصال مع خمسة أشخاص.. وكل شخص مرّة واحدة فقط.. وعلى مسافات زمنيّة متباعدة.. من أجل الحفاظ على ثبات مجرى التاريخ..".

حاول مهادنة نفسه لتتناغم دقات وجودها مع إيقاع الكلام. حاول التركيز في هذا الذي يقال؛ فقط من أجل الابتعاد بتفكيره عما سيقوله لها..ماذا سيقول؟!

هوى ببصره على العجوز مرّة أخرى، وقال له بعجز:

-"هوّن عليك يا حاج..".

هوّن عليك؟! ماذا تقول؟! أخرس الآن! ليس في نفسك ما يُقال..

وكأنما الرجل يتشبث بأيّة كلمة ليسلي بها نفسه، بدأ يهدأ، وهو يجفف بيده المهتزة خطّي الدمع المارين بخديه المتغضنين. ثُم قال:

-"و أنت يا أستاذ (علي)؟! ماذا عنك؟!"

ماذا عنك؟!

حاول كثيرًا إطلاق العنان لنفسه في الحديث، ولكنه لم يستطع. فقط كلمة واحدة استطاعت الانبثاق من بين شجون قلبه. قالها بمنتهى الاقتضاب:

-"إنها أختي".

تجاوب ارتجاف قلبه مع ارتجاف حاجب الرجل فوق عينيه الغائرتين، وقال بنبرة استحسان فوق المواساة:

-"يا لك من أخ بار.. يا لك من أخ بار.."

كان يعلم أن الرجل يريد منه الاستطراد. ولكن لا..ليس الآن.. سينفجر سد الدموع إنْ حاول.

نصف دقيقة لكل مكالمة.. عليك أن تعرف ماذا تقول..

يتوجب عليك هذا الآن!..نصف دقيقة؟! فقط؟! ماذا يمكنني القول فيها؟! ماذا أقول لكِ يا أختي المرحومة؟!

الإسراع بالمواجهة أهون بكثير من تأجيلها..هل تعلم لماذا يا (علي)؟.. لأنك تراكم عذابك مع كل قرار تأجيل..

ألم تكن هذه جملتك الأثيرة يا أختي العزيزة؟!

صورتها.. ومضت في عقله بينما تقول العبارة السابقة له. تذكر كل خلجة من خلجاتها.. تذكر ابتسامتها.. تذكر غضبها.. كل شيء مرَّ أمام عقله كطلقات فائقة السرعة..

أكنت تعلمين أنني سأواجه هذا الموقف يومًا؟! وبخصوصك أنت بالذات؟!

لقد حدد موعد الاتصال في ذلك اليوم الذي يسبق.. رحيلها. فقد كان يشتاق إليها بحق.. يشتاق إلى سماع صوتها في آخر يوم لوجودها.

عاد العجوز يبتسم وهو ينظر إلى وجه (عليّ) الشارد قائلًا:

-"أتعلم يا أستاذ (علي)..ما زلت لا أصدق الأمر حتى الآن..

ببساطة لا أصدقه.. لقد عشت شبابي في تلك المرحلة من التاريخ.. حيثُ كانت الثورة التكنولوجية في أوج قفزاتها.. قرأت عن أول آلة زمن.. تقريبًا كان مخترعها يُدعى "تشرنوبروف".. ولكننا وقتها لم نعترف بهذه الآلة.. فالآلة التي انطبعت بأذهاننا دائمًا هي التي نشاهدها في الأفلام ونقرأ عنها في القصص.. الآلة الأسطورية التي تجوب الزمن كله بلا قيود.. أما الآلة القادرة على إرسال ذرة واحدة ثانية إلى الخلف؟!..أي هراء هذا؟!.."

فلتتشبث أنت أيضًا بحديثه..

تنحنح (علي)؛ ليذيب لزوجة حلقه، وقال:

-"بالفعل يا حاج (عُمر)..إنني أشفق على جيلكم القديم.. تصور أن معظم جيلنا من العاملين بالمهن المتوسطة -وأنا منهم- لا يفهم بالضبط آلية هذا.. كما أن بعض زملائنا ما زالوا من مؤيدي ذلك العالم الشهير.. ومُصرُّون مثله على أن هناك خدعة ما في الأمر.. أما موضوع انتقال الصوت عبر الزمن؟! لا يصدقونه البتة.. ولكنَّ بعض معارفي خاض هذه التجربة بالفعل.."

-"و ماذا كان انطباعهم؟!"

صمت (علي) للحظة. كان يغالب أصوات أفكاره بصعوبة حتى يستطيع التجاوب مع الرجل. أخيرًا نجح:

-"البعض أكد أن الأمر حقيقيّ.. البعض شكك فيه.. خلاصة الأمر أن من رأى كمن لم ير!"

صمت الرجل. كان من الواضح أن الإجابة لم ترق له. ثُم سأل مرة أخرى كمن يتعلق بقشة أمل:

-"وما رأيك أنت في هذا؟!"

تنهد بعمق:

-"لا أعلم.. ولكن كل ما أستطيع فعله هو أن آتي لأجرب.. وهم في ذلك ناجحون تمامًا.. لقد استطاعوا جذبنا جذبًا لتجربة الأمر..".

علقّ الرجل:

-"نعم.. تمامًا كعروض السحرة في بداية القرن الحادي والعشرين.. رغم أن الناس كانت تُدرك أن هذه الأمور ليست أكبر من مُجرد خدع ذكيّة.. إلّا أنهم كانوا يقبلون عليها.. بل ويصفقون مذهولين في نهاية العرض!"

وقف الصمت بينهما سميكًا. وتطلع (علي) إلى الصفوف من حوله، ثُم دار برأسه ليرى كم تبقى..

اثنان.. حبتان أُخريان من العقد الطويل..

أعادته النظرة الأخيرة لأفكاره القديمة، ولحزنه القديم المدفون، والذي على وشك أن يتفجر في سماعة هاتف.

سمع ذات مرّة أنه قديمًا عندما ظهر اختراع التليفون الأرضي، اعتبره بعض الشيوخ حرامًا متعللين بأن: "ما ينقل الصوت كل هذه المسافات لابد وأن يكون الشيطان!"

نعم.. هو يفكر في ذلك الآن..

ماذا لو كان هؤلاء موجودين الآن؟! ماذا كانوا سيقولون عن بروتوكول الصوت عبر الزمن؟! أي شيء شيطانيّ هذا الذي ينقل الصوت من الأحياء إلى الأموات؟!.. لا شك أنهم كانوا سيكفْرون هذا الاختراع على الفور.

واحد.. حبة واحدة من العقد الطويل..

أخذ يقضي ما تبقى من الوقت بالتطلع إلى أعمدة الاتصال..

تُرى أي سر خلفها؟ تُرى أي خدعة خلفها؟

السر والخديعة. إن كلا منهما غير قابل للتمييز عن الآخر إذا استمر غامضًا.. عندما يتنكشف ذلك الغموض فإن كليهما يصير بلا قيمة.

إذن لماذا نغضب من الخداع دائما ما دام سيؤدي إلى نفس النتيجة؟! كن مخدوعًا تعش مرتاح البال!

أي هراء أفكر به الآن؟!..

وواصل تطلعه إلى تلك الأعمدة. من المخيف أن يعلم المرء بأن هذه الأعمدة هي بوابته السحرية للحديث مع الأموات.

هبط بعينيه إلى المخرج الخلفي لتلك الأعمدة.. والمسوّر بزجاج شفاف سميك. حيثُ الناس تُعتق وتخرج.. حيثُ حبات العقد تتحرر وتنفرط..

هل هم يُعتقون فعلا؟! أم يزدادون عبوديّة لذكرياتهم؟!

ربما هذا ما يلخص الأمر كله: إنها حالة إدمان.. الذكريات سببها.. ودواؤها أيضًا!

الآن يقف أمام باب كابينـة الهـاتف المـصمت. لديـه أقـل مـن دقيقتين ويكون (على الزمن)!

عند المخرج الخلفيّ لعمود الاتصال المجـاور لـه -رآهـا. كـان ظهرها مواجهًا له، بينما تبتعد في اتجاهها إلى خارج القاعة..

هـل يعرفهـا؟.. ربمـا.. لا يـستطيع أن يجـزم، فهـو لم يـر وجهها.. ولكنه يعلم على الأقـل أنـه رآهـا.. لا.. بـل أحـس بهـا في مكان ما!.. ولا يدري كيف!

إن شعوره كشعور من بُترت يده، ولكـن عقلـه مـا زال يـشعر أنها هنا.. ويصر على هذا.

شعر بكيانها المجهول المعالم يضرب كيانه مستغيثًا.. كما لو أنها روح استُنسخت من روحه.. تُريد أن تقترب.. يُريد أن يقترب..

ولكنها تبتعد.. تبتعد..

انفتح باب كابينة الهاتف الزمنيّ أمامه بصوته المعدني الـذي بتر منظومة أحساسيسه كمقص حاد. وانجلت أمامه معـالم الكابينـة الضيقة. فأبعد نظره عـن تلـك الخارجـة بـصعوبة، بينمـا يـدخل إلى الكابينة ذات الجدران البيضاء اللامعة.

أبعد تفكيره عن تلك الخارجة بصعوبة، بينما يلتقط سماعة الهاتف. قبضت أصابعه بقوة على جسم السماعة المصنوعة من معدن له ليونة البلاستيك، فانثنى قليلًا بمرونة.

لم يلبث أن انغلق باب الكابينة، ففصله عن العالم الخارجي وضجيجه. وتركه وحيدًا معزولًا في مواجهة ذكرياته الهائجة.

عندئذ خامره شعور مُقبض بالسجن، وزادت قبضته تمسكًا بالسماعة.

ببطء، ضغط على الزر الوحيد الموجود على جسم الهاتف، فتألق الزر للحظات بلون أحمر، سمع خلال ذلك صوتًا معدنيًا من السماعة يقول: "تم التأكد من الهويّة.. من فضلك كرر اسمك.."

تنحنح، ثُم أجاب:

-"علي أبو العنين.."

-"بصمة الصوت.. مطابقة.. لحظات ويتم تحويلك".

انبعثت في أذنه موسيقى هادئة مُلطفة. ولكن أيّة موسيقى تلك القادرة على تلطيف نفسه الحائرة في البحث عن كلمات؟!

لا تفكر في الكلام الذي ستقوله.. انتظر فقط سماع صوتها..

عندئـذ قـل مـا يجـول بخـاطرك مباشـرةً.. الـتفكير أحيانًـا يعرقـل الإنسان.. ويمنع غريزته من اتخاذ الردود المناسبة..

و كأنما قرأ الهـاتف أفكـاره، انبعـث الـصوت الآلـي الهـادئ نفسه قائلًا:

-"سيتم تحويلك الآن.. تـذكر عزيـزي العميـل.. لا للأخبـار والأحداث المستقبلية.. وعلى كل حال فإن أيّة جملة غير مطابقة لمواد قـانون حمايـة التـاريخ سـيتم حجبهـا بحيـث لا يـسمعها الطـرف الآخر.. شكرًا لكم على ثقتكم".

الرنين.

تررت.. ترررت.. .. ترررت.. ترررت..

لب.. دب.. .. لب.. دب..

السقف.. الأرض.. .. السقف.. الأرض..

تجمَّع العرق الغزير تحت إبطيه وعلى عجزه، بينمـا صـارت يده المسكة بالهاتف لزجة، ينافسها حلقه المُتحجر.

رنين الهـاتف الرخيم = شعور انتظار مرضيّ = أبديّـة رتيبـة

مقيتة..

خواء..

"آلو؟!"

* * *

-"أين كُنت؟!"

قالتها وملامحها شبه جامدة. كانت هُناك بعض آثار التوتر على شفتيها.

تقدم منها، بينما الباب الأوتوماتيكي ينغلق من خلفه كجفن عملاق. ولم يجبها مُباشرة، بل جلس على الأريكة المُقابلة، وقلبه لا يزال يدق داخل صدره من عنف وانفعال الساعات الماضية.

أراح ظهره على ظهر الأريكة الوثير، وقال بينما عيناه مُغلقتان:

-"كُنتُ في التظاهُر الأخير.."

اللعنة! سيحدث ذلك الآن!

مُتوقعًا ما سوف تقول، حاول صرف تركيزه السمعي، وهو

يتمنى لو كان هُناك صمام للأذن يغلقه المرء كلّما شاء.

-"مرة أخرى! ألن تكف عن هذا؟!"

بدأ صوتها يحمل ثورة مكبوتة، بينما قال هو بإرهاق حقيقيّ ولكن بعدم تركيز مُتعمَّد:

-"لن أكف عن ماذا؟!"

استفزتها إجابته، قائلةً:

-"عن التظاهر والاحتجاجات هذه.. كل يوم؟!.. ألا تمل؟!"

ألا تملين أنتِ؟!

و استطردت بصوت أكثر حدة:

-"ماذا تُريد أكثر مما أنت فيه؟! حياة كريمة جيّدة من مدخرات والدينا رحمهما الله.. صحة.. استقرار.. لماذا تُصر على إفساد كُل هذا؟!"

لم أعد أحتمل.. لم أعد أحتمل..

فتح عينيه مُندفعًا في الكلام:

-"تصوري يا أختى العزيزة؟! لم أتوقع أبدًا أن يثير هذه

الموضوع بالًا لديك.. فلأذكرك إن كنت قد نسِيتِ.."

ثُم قال بصوت شديد:

-"أنتِ من علمني هذا.. أنتِ من رباني على هذا..

الحقيقة أنني مندهش جدًا من تصرفك تجاه هذا الموضوع.. إنني رجُل.. والرجُل خُلِق من أجل العمل.. ولا تكتمل رجولته وإحساسه بذاته إلّا به..

هل تعلمين ماذا تقولين لي الآن؟! أن أكف عن البحث عن عمل!.. أن أكف عن الحياة!.."

صدمها منطقه ولهجته الشديدة، ولكنه يعلم أنها عنيدة، ولن تتخلى عن نظرتها بسهولة. هذا إنْ تخلت عنها من الأساس!

بالفعل، بدأت ملامح التمرَد على وجهها، وقالت:

-"و لكن هُناك"

قاطعها هذه المرة، وقال:

-"هُناك ماذا؟! الحكومة تفعل المستحيل من أجل تضييق رزقنا!.. كل يوم يتوسعون في إدخال الإلكترونيات في الوظائف

الوسطى.. كل يوم يتوسعون في تسريح المزيد من العُمال والموظفين! ببساطة الحكومة تسحقنا بأيديها وأقدامها!

حتى العمل الحر أصبح صعبًا منذ الهزّة الرأسماليّة الثانية.. وحتى لو كان مُتاحًا.. فهو يحتاج إلى رأس مال كافٍ.. وهو غير متوفر بالطبع!.."

وخفض صوته:

-"لذا لا بد من أن يتغيّر هذا.. لا بد من الغضب والانقلاب والتظاهر.. لا بد من الثورة.."

برقت عيناها بالدمع، وهي تقول بصوت مُضطرب:

-"وماذا عني أنا؟!.. ماذا تتوقع مني؟! ماذا تتوقع؟! إنك تقتلني كل يوم عندما تغيب.. إنني أرتجف لمجرد التفكير أنني قد أفقدك!.. أرجوك يا (علي).. لا أستطيع الحياة لحظة بدونك.. أرجوك.."

لقد سئمت هذا.. سئمت..

صاح بها بصوت شديد:

-"وأنتي تقتلينني كل يوم بهذا!.. أرجوك أنتِ.. كفاك تدخلًا في حياتي!"

نعم شعر بذلك. شعر بكلماته الشديدة تصفعه قبل أن تصفعها.

بدت بحالة مُزرية وهي تتلقى كلماته. ولكنها صمتت تمامًا، ونهضت إلى غرفتها بخطوات مُضطربة.

حاول لحظتها مُغالبة عناده، وتمنى لو تستطيع روحه التحرر من جسده، والذهاب إليها، ليعتذر.. ليبكي على صدرها كما كان يبكي قديمًا..

ولكنه الآن صار سجين جسده الناضج بكل أحلامه وطموحاته.. وبكل عناده.

* * *

أتى الصباح وهو نائم على الكرسى مُتحجرًا في موضعه.

استيقظ على الفور رافعًا رأسه من بين يديه. واستقبلت عيناه شمس اليوم الجديد التي صبغت الأبنية الطويلة بلمعان الذهب.

نهض متمطيًا، وللحظة خُيّل له أن مُجرد كابوس هو كل ما حدث الليلة السابقة. وكأن للّيل سيطرته الخاصة على جوانب البشر، وشياطينهم.

دون أن يشعر وجد عينيه تبحثان عنها في أرجاء المنزل. تبعتهما قدماه إلى غرفتها.

نقر على الباب.. مرة.. اثنين.. ثلاثة.. أر..

فتح الباب بعدما تمكنت منه كل الوساوس المقيتة.. بعد أربع نقرات فقط؟! نفسه ضعيفة فعلًا. أو ربما فطن قلبه الأمر قبل أن يتنبه عقله إليه.

كان جسدها الخاوي مستلقيًا على ظهره، ووجهها مُتألق بين خصال أشعة الشمس.. كانت في أبهى صورها كأنما عادت بالزمن عشرين عامًا إلى الوراء.. عاد ذلك النور الصافي يطفو على كل ملمح. وللحظة بدت له نائمة وليست..

ميتة.

لم يحاول ذكر اللفظة بينه وبين نفسه، حتى بعدما فشل في إيقاظها. كل ما فعله هو أن استلقى بجوارها على السرير، وطفق

يبكي على كتفها الرخو كما لم يبكِ من قبل.

حدَّثه الطبيب الشرعي عن غموض سبب وفاتها..

"هذا النوع من الوفيات يزداد عامًا بعد عام.. وفاة مفاجئة بلا أيّة علل جسديّة.. قد يكون ذلك بسبب بعض الأمراض النفسيّة التي انتشرت في الآونة الأخيرة..

هلا أخبرتني بحالتها النفسيّة قُبيل وفاتَها؟"

هذه هي الجملة الوحيدة التي يذكرها في حديث الطبيب الشرعيّ. إنه حتى لا يذكر هذا الطبيب، بل لا يذكر أيّ شيء من جموع الأحداث التالية لرحيلها مباشرةً..

حالتها النفسيّة؟ لم تكن سيـ..

لا بل كانت كذلك! سيئة جدًا في الواقع ودونما سبب مفهوم. ولكنها كانت دائمًا تخفي ذلك عنه.

كانت في السابعة عشرة -أي زهرة عمرها- عندما توفي والداهما في ذلك الحادث وعندما تولت مسؤوليّة تربيته منذ عامه الرابع وعلى مدى ثمانية عشر عامًا، حتى أنشأته رجلًا بحق. لقد

كان ابنها وأخاها. كان لها كل شيء. وكانت له كل شيء.

زاد تعلقها به أكثر. حتى إنها لم تتزوج. وأصرّت أشد الإصرار على أن "الوقت غير مناسب بعد".

كان تعلقها به مرضيًّا.. هذا مؤكد.

لقد رحلت تاركةً إياه في قلب عاصفة عاتية من الشعور بالذنب والرغبة الكاملة في الضياع.. كان يُريد حقًّا أن يفقد ذاته. ولكنه تمكن من مداواة ذلك الشرخ في نفسه بصعوبة شديدة، أعانه على ذلك اندلاع الثورة، فشغلته أحداثها المحمومة مثل كل مواطن في ذلك الوقت.

* * *

"آلوو؟!"

كل هذا طاف بذهنه في لحظة واحدة.. بل في لمحة واحدة كأنما صوتها كان ناقوس البداية.

يا إلهي! هذا حقيقيّ للغاية!

أنا أحُدث شخصا مات في حاضري، ولكنه لم يمت في حاضره!

انطلق عقله ينزف الذكريات في عشوائية جارفة..

...

"وأنت تقتلينني كل يوم بهذا!.. أرجوكِ أنتِ.. كفاكِ تدخلًا في حياتي!"

...

لا تفقد السيطرة.. لا تفقد السيطرة..

...

كان ظهرها مواجهًا لي.. بينما تبتعد عن العمود في اتجاهها إلى خارج القاعة..

هل أعرفها؟.. ربما.. لا أستطع أن أجزم.. ولكنني أعلم على الأقل أنني قد رأيتها.. لا.. بل أحسست بها في مكانٍ ما!.. ولا أدري كيف!

...

شعرتُ بكيانها المجهول المعالم يضرب كياني مستغيثًا.. كما لو أنها روح استنسخت من روحي.. تُريد أن تقترب.. أُريد أن

أقترب..

ولكنها تبتعد.. تبتعد..

...

لا تفقد السيطرة.. لا تفقد السيطرة..

أمسك مقود انفعالاته بكل قوته، مُمسكًا بجسم الهاتف بقوّة أكبر حتى تقلصت عضلات يده. ولكنه لم يعبأ.

تنحنح وقال بصعوبة:

-"آلو؟!"

-"من معي؟! صورتك لا تظهر على شاشة الهاتف؟ من أنت؟!"

-"(نهى).. أختي.."

-"(علي)؟! ما بال صوتك؟! مـ.. "

الآن..

-"سامحيني.."

-"..

أغلق الهاتف في سرعة وحسم. لحظتها شعر كأنما تجمّد خط الزمن كله، ومعه شريط انفعالاته.

انفتح الجدار المُؤدي للمخرج بصوت معدني. فشعر به يقص شريط انفعالاته على الفور.. ويبتره على أرض الكابينة.

لثوانٍ قليلة ظل مُتطلعًا إلى الباب المفتوح.. بعدها خرج مُندفعًا من الكابينة شاعرًا بثقة وارتياح عجيبين.. شاعرًا بأنه تحرر للتو.

وفي طريقه للمخرج تألقت في ذهنه ذكرى بعيدة..

* * *

لم يقرب حجرتها لفترة طويلة، وكأنما اتفق مع نفسه أن حجرتها هي مقبرة أخرى لروحها.. مقبرة شديدة الخصوصية.

باستثناء مرّة واحدة. كان ذلك بعد الثورة العمّالية التي أعادت الموازين لنصابها الصحيح. وقتها شعر بأن كل ما طمح إليه قد حققه. بالفعل كانت قيمة هذه الثورة أكبر بكثير من نتائجها. لقد كانت الثورة بالنسبة له بمثابة ولادة حياة جديدة من أخرى ميتة.. كانت ثورة على نفسه في المقام الأوّل والأخير.

فجأة استيقظ على حاجته الشديدة لها؛ لتشهد على نجاحه،

ولتفرح معه به. كان في أمسّ الحاجة إلى شيء من رائحتها. في حاجة إلى لمس شيء كانت هي آخر من لمسه، كأنما يحاول بذلك مُعانقة بصمات روحها المتناثرة هنا وهناك.

عندما دخل حجرتها ذات يوم مُشمس كيوم رحيلها، شعر لوهلة أنه قد دخل آلة زمن نقلته على الفور لتلك اللحظة البعيدة. لمس شعاع بصره كل محتويات الحجرة كأنما يراها في كل ذرة منها..

كان أوّل ما طالعه هو حاسوبها الخاص. أشعله فوجد – لدهشته– أنها كانت قد أزالت كلمة المرور.

طالع ألبوم الصور.. طالع المواقع الإلكترونية التي كانت تدخلها.. طالع بريدها..

كان على وشك إغلاق الجهاز، ولكن لفت انتباهه خلفية برنامج التشغيل.. فقد لمح عليها ملف كتابة عنوانه:

"إلى أخي العزيز"

فتح الملف شاعرًا بتيار بارد ينتشر في ظهره، وتولّاه إحساس غريب وقتها أنها ما زالت حيّة تُرزق.

كانت الرسالة مُختصرة:

"سامحتك"

* * *

أفاق من خواطره بينما يعبر باب الخروج. مسَّه هواء الخريف المائل للبرودة، فأنعش كيانه..

تجمد في مكانه..

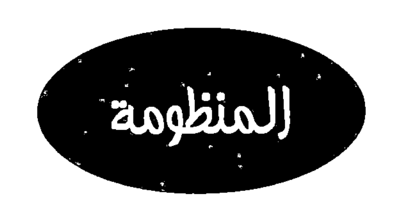
كانت هُناك. تلك التي رآها تخرج من الكابينة المجاورة له في المركز قبل اتصاله. جالسة وحدها على كرسيٍّ في الحديقة العامة بجوار المركز مُتطلعةً إلى خريف الأشجار هنا وهناك.

ودون أن يفكر لحظة، اقترب منها بهدوء مخالف تمامًا للصخب الدائر بصدره.

دار حول الكرسي من خلفها..

وقف مُتطلعًا إلى وجهها. ثُم قال بينما تعلو شفتيه ابتسامة:

"مرحبًا"


المنظومة

رنين.

بينما أنا جالس في معملي الصغير، حيثُ أعمل على دوائر إحدى المفصليات الإلكترونيّة، انبعث رنين الهاتف يُحيي آذان الصمت.

ارتعش جفناي، فأغلقا مسار رؤية الدارات المُكبرة أمام عيني، واهتزت يداي المُمسكة بالملقط الميكرسكوبي، كما لو كانت الموجات الصوتية المُنبعثة من جرس الهاتف قد صعقت أناملي. وللحيظات شعرت بانزعاج شديد من انقطاع خلوتي..

قال برنامج الاتصال:

-"اتصال من المسرح .. سيدي.."

المسرح؟ ماذا يُريدون الآن؟! لا بد أن الأمر جلل، حتى يتصلوا بي شخصيًّا.

تبخّر انزعاجي في اللحظة التالية، وأنا أتطلع إلى الفراغ آمرًا

كمبيوتر الهاتف:

-"اقبل"

فانفتح الخط، وبدأ تكوّن الهولوجرام في لحظات معدودة. سحابة .. ثُم هلام .. ثُم شبح .. وفي النهاية: (شريف).. مُدير المسرح.

لنر ماذا يُريد..

ابتسم فمه بطريقة متناقضة تمامًا مع وجهه البادي القلق، وصاح:

-"دكتور (يوسف).. كيف حالك؟"

تراخت يداي المُقفزتان على جانبي المفصلي الإلكترونيّ، لتلامس المفرش الرخو المُضاد للكهرباء الاستاتيكيّة. ثُم تراجعتُ في مقعدي العملاق، وأجبتُ دافعًا طعم الحذر عن لساني:

-"بخير الحمد لله.."

لا شك أنه لاحظ عينيّ المتسائلتين، أو هو الحذر الذي استطاع التسلل إلى صوتي دون وعي، ولكنه من الطبيعي أن يبرر اتصاله بي.

أعتقد أن الوصف المثالي لعلاقتنا هو صداقة عمل.

لذا انتظرتُ إجابته، التي ألقاها على الفور:

-"نريدك هُنا.. الآن.."

تركت لساني يجيبه، بينما حاول عقلي توقع سبب الاتصال:

-"ماذا حدث؟"

تنهد، فانخفض صدره العريض سريعًا:

-"لدينا مشكلة بخصوص الدمى حدثت خلال العرض المسائي.. وقد حاولنا السيطرة عليها ولكن باءت كل محاولاتنا بالفشل.. فاضطررنا إلى إلغاء العرض.. على أن نجد للمشكلة حلا.."

صمت للحظة ثُم قال حثيثًا:

-"خلال هذا اليوم".

كلامه المُتوتر أفار دهشتي العلميّة بقوّة، حتى أكاد أشعر برائحتها العنيفة تلفح أنفي.. ودفعتُ عباراته الأخيرة أمام عقلي بتمعّن: مشكلة -الدمى- إلغاء العرض - خلال هذا اليوم.

سألته بنفس الحذر:

-"ما نوعيّة المُشكلة بالضبط؟!"

مسح على شعره الخفيف براحته اليمنى:

-"لا أعلم .. فالفـ..."

هززت رأسي مقاطعًا إياه في استدراك:

-"أقصد ما مظاهرها؟ ماذا حدث للدُمى فعلًا؟!"

ولكنه أجاب بنفاد صبر:

-"الأمر ليس هينًا.. وإلّا ما اتصلت بك.. يجدر بك المجيء.. فالأمر يطول شرحه.."

وددتُ سؤاله عن شيء ما ولكنني -من فرط الحيرة- نسيت. كُنت آمل في حل الأمر عن طريق أحد الفنيين الموجودين في المسرح، ولكنه قاطعني بسرعة، كأنما أحبطه صمتي:

-"هلا أتيت؟.. إن الفنيين هُنا يكادون يُجنّون.. ولا يستطيعون تحديد سبب المُشكلة بالضبط.. كما أننا لا نستطيع إيقاف

العروض.. فلدينا سمعة لا بد من الحفاظ عليها.."

لديه الحق بالفعل، لذا أومأتُ موافقاً:

-"بالتأكيد.. قادم إليك حالاً.."

فأومأ هو الآخر بامتنان، وفي عينيه بريق الفوز:

-"جيد.. نحن في انتظارك.."

ثُم أنهى الاتصال، وبدأ تسلسل ظهور الهولوجرام ينعكس بانسيابية : شبح .. ثُم هلام .. ثُم سحابة.

ارتأيت في الكيان الغامض المتناقص لسحابة الهولوجرام مدى غموض ما حدث في المسرح. ولم يستطع عقلي إرجاء البحث في اللغز، وأنا أغيّر ملابسي، وأجهّز مُعداتي.

هاااااا.. مممففففف.. شهيق ثُم زفير – أطلقتهما بقوة شديدة بينما أغلق باب المنزل بالمفتاح الإلكترونيّ.

حاولت استجماع قطرات التركيز، بينما أعبر المر الهادئ في طريقي إلى المصعد، ثُم بينما أركب السيارة الساكنة أمام البناية في

طريقي إلى المسرح.

كان المسرح أول مكان على الكوكب يُدخل فكرة المفصليات الآلية إلى عالم الفن. لقد كانت فكرة ثوريّة بحق.. حتى إننا سجلنا حقوق ملكيّتها الفكريّة. أذكر حديث (شريف) معي منذ عام تقريبًا في بدء حديثه عن المشروع:

-"الفكرة التي أتمنى أن تساعدني على تنفيذها .. هي إدخال عنصر الروبوت إلى المسرح.. هل تذكر مسارح العرائس الخيطية؟ أو الماريونت بلغة الغرب؟"

أذكر وقتها أنني تطلعت بشرود مسحور إلى النيل المُغلف بأنبوب شفاف وهّاج الجدران، الأمر الذي منحه منظرًا من أبدع ما يمكن، وقُلتُ بعد فترة قصيرة بين الشراب واستجماع المعلومات:

-"نعم أذكرها.. لقد كانت إحدى السمات الفلكلوريّة للشعوب قديمًا.. حيثُ كان الشخص يقوم بتحريك الدمى من فوق المسرح ببراعة.. كانت هذه الفكرة مثيرة ومحببة لدى الأطفال قديمًا.. قبل اختراع الحوسبة والألعاب الرقميّة.. بالتأكيد أذكرها.."

بدا لي وقتها الحديث عن الماضي في هذا الوقت بالذات أمام

النيل ليس مُجرد صدفة، بل تخيلت أن روح نهر النيل القديمة قد خرجت من كيانه وعبرت جدار (أنبوب وقاية التلوث) إلى خيالنا مباشرةً. ربما كنت سأتقبل ذلك في حالة عدم وجود هدف مُسبق للقائنا. ولكن الحق، إن الرجل يتمتع بعقل عالم، وخيال فنان.

قال كأنما وجد كنزًا:

-"بالضبط!.. ما أريده هو استغلال نفس الفكرة مع تطعيمها بروح التكنولوجيا".

بدأت أفهم ما يرمي إليه. أكمل:

-"دعنا نلق نظرة متفحصة على مسرح العرائس القديم.. كانت عناصره بسيطة .. لأنه اعتمد في الأساس على مهارة اليد المُحركة للعرائس.. لدينا عرائس مربوطة أطرافها بخيوط متينة رفيعة.. لدينا ستار بسيط لإنهاء كل مشهد.. لدينا ديكورات سهلة لتهيئة الجو المناسب.. والأهم طبعًا.. لدينا فكرة أدبيّة مميُزة لاضفاء الجمال والحيوية اللتين تفتقدهما العرائس.."

توقف عن الاستطراد هذه المرة، وقال:

-"لن أكمل حديثي.. أأدركتُ ماذا أريد؟"

و ابتسم، بينما نظرتُ له هنيهة، وأضفتُ:

-"إذن.. بدلًا من العرائس الخشبية.. تُريد عرائس آلية.. وبدلًا من الخيوط.. تُريد اتصالات لاسكليّة مُبرمجة لحساسات خاصة في أطراف العرائس الإلكترونيّة.. هل نسيت شيئًا؟!"

-"نسيت الديكورات.. والتي سنبدلها بتصميمات هولوجرامية تُحاكي الديكورات القديمة.."

أومأت في فهم. ولكن..

"ولكنك بتلك الطريقة تلغي عامل المهارة والإبداع الذي يجعل من الفن فنًّا.. فما الهدف أن تشاهد الناس منظومة آلية تعمل ببرنامج مُعد مُسبقًا؟!"

أحسست ببقعتي ضوء المكان المُنعكستين على قرنيتيه تتسعان وتلتمعان أكثر. وأجاب بجذل:

-"هنا تأتي النقطة الأهم.. معك حق بالفعل فيما قلتُ.. فالعمل الآلي ليس إبداعًا بقدر ما هو اجتهاد وإتقان.. لذا لا بد من

تطعيم المنظومة بلمسة بشريّة تتوج الإتقان الآلي بمهارة بشريّة..

بمعنى أن البرنامج ونظام التحكم اللاسلكي سيكون بديلًا عن الخيط كما أشرتَ.. أما المسيطر والمشرف الرئيسي على منظومة العمل هو فنان مُحترف.. فنان يتحول البرنامج بلمسات أنامله إلى عصا سحريّة تحيي جمود العرائس وآليتها.. وترفع من قيمة المنظومة كلها إلى فن جدير بالمشاهدة.. خاصةً إذا توفرت لدينا حبكة قصصيّة جميلة جذّابة.. تجمع ما بين الفلكلور القديم المُثير للخيال وروح العصر التي تُبعد الملل والنفور.."

لا أنكر أن فكرته أبهرتني، ففكرة سيطرة برنامج آلي على العرائس لسيت بالجديدة، وقد واتتني خلال إحدى مراحل حياتي. مع مراعاة الاختلاف بين تطبيقه وتطبيقي. أما الجديد فهو ذلك العنصر البشريّ.

لذا وجدتني أقول في حماسة:

-"فكرة رائعة بالفعل.."

ابتهجَ وجهه المتلئ بعض الشيء، وترك فمه كأس المشروب

ليده، فوضعته على المائدة، وقال:

-"أيعني هذا أنك معنا؟! ولا تقلق بشأن الماديات.. اطلب الأجر الذي ترغب به.. واحسب الميزانية المطلوبة.. وأنا جاهز.."

عنصر جميل آخر ينضم إلى قائمة فائدة هذه التجربة: مبلغ مالي لا بأس به. ولم لا أوافق بعد كل هذا؟

ليلتها وقعنا العقد المبدئي، وعُدتُ إلى منزلي ومعملي الصغير مُبتهجًا على غير عادتي. وقد منحني المشروع نوعًا من السلوان الذي احتجته بعد فترة ليست بالقصيرة من الخمول. والذي كان نتيجة حصولي على جائزة الكونيّة للبحث العلميّ .. وهي أرفع جائزة علميّة على الكوكب.

و تم الأمر بالفعل بعد ستة أشهر فقط.. من رسوم وتخطيطات رقميّة.. من جهد مبذول.. وحذر موفور.. من أموال تذلل كل عقبة.. من خريطة طويلة في عالم الخيال إلى كيان حقيقي على أرض الواقع.

أرض الواقع. خرجت من السيارة متطلعًا للمسرح العملاق. كانت واجهته بديعة بالفعل، مُهيكلةً من عشرة أعمدة طويلة

بلوريّة، تسري فيها ذرّات متألقة باللونين الأزرق والأخضر. بينما في منتصفه تمثال ضخم من معدن "البرومون" اللامع المُشع - عبارة عن يدين طويلتي الأنامل -كانعكاس للإبداع البشريّ- ومبسوطتين إلى الأمام، على كل منهما دمية آلية. الدميتان في وضع راقص جميل.

وعلى قاعدة التمثال الرخامية حفُر عليه اسمه واسمي:

المسرح العالمي للعرائس الإلكترونيّة

إهداء إلى العالم العظيم (يوسف عبدالوهاب)

الذي جعل الخيال واقعًا

هذا الكيان حقيقي بمجهود مُصممه وبخيال وأموال مُديره.. لذا لا بد أن يظل كذلك. لستُ من النوعيّة التي ترضى بالهزيمة.. مهما بدت ضآلتها.

دلفتُ إلى المكان، وجسدي يرتعد بالإصرار وبعض الغضب. لن أترك الحبل على الغارب.. لن أترك الصرح ينهار أبدًا.

* * *

انعكست فورتي على خطواتي، التي صارت قويّة مدويّة، حتى أن الكل حدّق في عندما دلفت للحظات في صدمة. ربما توقعوا أنني سأهب في الجميع ساخطًا. ولكن لا.. لستُ ذلك النوع الذي يحرق منطقه بنيران الغضب. العالم الحق لا بد من أن يعتني بأعصابه ولا يتركها تقوده إلى طرق مسدودة.

لذا على عكس دخولي، حييت الجميع –الجالسين في انتظاري– بهدوء كما ردوا تحيتي في ود وتأهب.. كأنما يبحثون عن جبلي ليلقوا عليه حمولهم الثقيلة. أنا المُنقذ في عيونهم الآملة الآن.

نظرتُ للستائر المفتوحة والمقاعد الخالية التي تتابعنا كجمهور خاص يُشرف في صمت على ما يدور خلف الكواليس. وصحتُ:

–"أين المُدير؟"

كاد يجيبني أحدهم، ولكن يبدو أن (شريف) سمعني، فرأيته يدخل من الباب الآخر، ومعه خبير التحريك.

بعد التحية. دخلنا في لُب الموضوع مباشرةً.

توجهتُ بسؤالي إلى فني التحريك:

-"أستاذ (جمال).. أريد معرفة ما حدث بالضبط."

بدت ملامحه الشابة مُتفهمة، بينما آثر (شريف) الصمت.

قادني (جمال) إلى شاشة التحريك الآلي. كانت شاشة كبيرة، موضوعة بطريقة شبه أفقية، أي إنها شبه نائمة على المكتب الخاص به، ومثبتة بأعمدة قصيرة قابلة للانضغاط والتمدد لتتيح زوايا أكثر مرونة.

جلس (جمال) بينما أنا و(شريف) كُل منا على جانب. قام بفتح النظام بضغطات أنامله، حتى وصل إلى السجلات أو الـ Log الموثقة بالصورة الفيدويّة.

قال (جمال):

-"كما تعلم.. المسرح يعرض سبعة عروض مختلفة.. كل عرض له يومه المُخصص.. وكان عرض اليوم هو (رائد الفضاء).. العرض مكوّن من شخصيتين رئيسيتين.. رائد الفضاء.. والكائن الفضائي.. بالإضافة إلى مجموعة قليلة من الشخصيات الثانوية.."

طلب رقم المشهد الذي بدأ عنده الخلل. فتحركت صورة كاميرا إلى منتصف الشاشة لم تلبث أن أرسلت شعاعا هولوجراميا تفرع فوقها ليكوِّن المشهد.

كان المشهد عبارة عن حوار ساخر بين رائد الفضاء والكائن الفضائي.

قال (جمال) واصفاً:

-"كما ترى.. كان كل شيء يسير على ما يُرام هاهنا.. وعلى الرغم من ذلك.. كان البرنامج يطلق إشارات تحذيريّة باستمرار عن وجود (خطأ مجهول) على حد وصفه.. وهنا انتبهت لشيء غريب.. شعرت بأن الدمى لم تعد تستجيب للمساتي.. والأغرب أنها كانت تقوم بدورها كما لو كُنتُ أوجهها بالفعل!"

وتوقف عن السرد ليتركني أهضم قوله ببطء. فصمت عقلي كلساني.

يبدو أنه لم يتوقف للسبب الذي توقعته.. فملامحه أنبأتني ببحثه عن تعبير مناسب لما حدث. قال أخيرًا:

-"وكأن لها حياتها الخاصة!"

وصل للتعبير في الوقت ذاته الذي وصلت إليه تقريبًا. وتفكرت في الأمر. حياتها الخاصة؟! كيف وأنا أعلم بكل دائرة صممتها في كل المنظومة من أصغرها إلى أكبرها؟!

استطرد وصوته يحمل بعض آثار حيرته السابقة:

-"على أن هذا لم يستمر طويلًا.. فقط بضع ثوان فقدتُ بعدها السيطرة تمامًا.. وتخبطت حركة الدمى ما بين التراخي والانقباض.."

تزامن حديثه مع ما حدث لهولوجرام الدمى.

تراخ.. انقباض.. تراخ.. انقباض..

بالرغم من كوني مُصمم دوائر تلك الدمى، إلّا أن رؤية حركتها العشوائية التبادلية تلك قد أطلقت صاروخًا جليديًّا في ظهري.. وكأن.. كأنها حركات شيطانيّة بحق!

جلستُ على أقرب كرسي إليّ، وقلت في خفوت:

-"دعني أفكر.."

بالتأكيد عليّ أن أفكر.. هذه وظيفتي التي منحتني ما أنا عليه الآن.

إنه للغز غير مسبوق.. تحدٍّ شخصي لعقلي.. ضربات مستفزة على باب داري.. طعنة نافذة في قلب مجالي.

لذا لن أيأس في البحث عن حل.. كل شيء يمكن تطويقه بالمنطق.. خبراتي كلها تؤكد هذا.

أولًا.. ما سر تلك الثواني القصيرة من الانسجام غير المُسيطر عليه؟ من المخيف أن يضطر المرء أحيانًا أن يفكر في غير العاقل كعاقل..

أن تتحرر الماريونت من خيوطها وتعابثك بطاعة مصطنعة.. ثُم تنقلب عليك في شراسة بعدها.. هذا أكبر مما فكرت به أثناء تصميم المنظومة التي ظننتها مُحكمة.. مثلها مثل أيّة حقيقة في عالمنا!

حياة خاصة؟ كيف؟! إن كل ما تحمله ذاكرتها هي مجموعة من المعادلات التي تُترجم لأفعال مُتوقعة ومتواقعة مع التعليمات

الرئيسية.. هذه ليست حياةً.. هذا ليس قدرًا..

فالحياة أعلى من مُجرد سلسلة معادلات منطقية.. والقدر أعلى من مُجرد تنفيذ لتلك المعادلات..

بعد صمت طال، قلتُ:

-"لا بد من اختبار النظام كله.. فلنبدأ بفحص كل عنصر من النظام على حدة.."

تابعني المدير، بينما تساءل جمال:

-"ماذا تقترح كبداية؟"

تطلعت إليه، رافعًا حاجبي، وأجبتُ:

-"أريد القيام ببروفة خاصة لكل دمى العرض..

أريد أولًا معرفة ما إذا كان الخلل يشمل كل الدمى أم فقط دمى عرض اليوم.. فإذا شمل الخلل كل العروض.. هذا يعني أن الخلل الرئيسيّ يكمن فيما قبل مستوى الدمى.. أعني عمليتي معالجة البيانات والتي ينفذها برنامج التحريك.. وعملية نقل التعليمات

والتي ينفذها جهاز الإرسال.."

حك (جمال) مؤخرة رأسه بيمناه:

-"مممممم"

بينما أسرع (شريف):

-"فلنبدأ على الفور.."

* * *

أغرقنا الصمت لدقيقة أو يزيد. وبدأ كل منا يحاول استيعاب ما حدث في دهشة. وبالأخص أنا.

فمن غيري يستطيع تحمُل مسؤولية ما حدث؟ من يتحمل انفلات المنظومة غير صانعها؟

من خلف جفوني المغلقة المُرتعشة، استقبلت عين عقلي الإشارات الخفيّة. إنهم يتطلعون إليّ الآن.. يبحثون في ملامحي المتصلبة عن خط أمل ينبئ بانتهاء المُعضلة.

ولكن دعنا منهم الآن..

تركتُ الأفكار تتجسم في أعماق خيالي. ورسمت بعقلي خريطة الفرضيات من جديد.

"ما مكونات المنظومة؟!"

شعرت بالتساؤل أقوى مما ينبغي، و..

-"هه؟"

يبدو أن التساؤل أفلت من عقلي إلى لساني. ولكنني لم أجبهم وتعمقت بعقلي أكثر في الخريطة..

ما مكونات المنظومة التقليدية للعرائس؟

اليد – الخيط – الدمية.

يمكننا الآن إقصاء العنصر الأخير.. "الدمية". فلقد أثبتت البروفات الخاصة حدوث الخلل مع جميع الدمى في جميع العروض بنفس الصورة السابقة. وهذا لا يعني سوى سلامة الدمى من الخلل.

يتبقى إذن البحث في العناصر الأخرى: برنامج التحريك وجهاز الإرسال.

اليد والخيط.

فتحت عينيّ. بالفعل كان معظمهم يتطلع إليّ باهتمام، بينما كان (جمال) يتململ في جلسته.

قلتُ على الفور:

-"إلى الاختبار الثاني.. إذن.."

التفت إليّ (جمال)، وسأل رافعًا حاجبيه:

-"ماذا؟!"

-"علينا فحص برنامج التحريك"

تحرّك على الفور إلى كمبيوتر التحكم، ولكنه لم يجلس مُشيرًا إلى المقعد المنصوب أمامه:

-"تفضل"

اتجهت إلى المقعد ثُم جلست. أخرجتُ من حقيبتي مستطيل ذاكرة، وقُمتُ بإدخاله في فتحة بجانب الحاسوب. فاختفت منصة التحكم التقليدية وظهرت منصة البرمجة. وبدأت عملي.

استخدمتُ برنامجًا خاصًا يقوم بحصر الأكواد البرمجية غير المعنونة بوظائف مُحددة. وسرعان ما ظهرت النتيجة أمامي.. النتيجة الغريبة..

لا يوجد كود واحد غير سليم.. بمعنى آخر: كل شيء على ما يُرام!

سألني (جمال) في الوقت المناسب تمامًا!:

-"أهناك جديد؟!"

اعوجت شفتاي بينما هززتُ رأسي في نفي.

دعني الآن يا جمال.. الأمر ينتقل من سيئ إلى أسوأ هاهنا.

تنهدتُ قائلًا بصوت خفيض:

-"الآن لم يعد لدينا سوى اختبار واحد.."

فأكمل (جمال) عبارتي مُتحفزًا:

-"يمكنني اختبار جهاز الإرسال سريعًا.."

كان من السهل عليّ أن أقوم بالاختبار الأخير، ولكنني كُنتُ

أحتاج إلى تَركيز خاص للتفكير.. أحتاج إلى عدم تشتيت انتباهي بمُجرد فحص روتيني.

لذا نزعت الذاكرة من جانب الحاسوب، وقُمتُ مفسحًا له المجلس. أسرعت يداه تتوغل في نظام التشغيل حتى ولج إلى نتائج اختبار الإرسال، وقال:

-"التردد سليم تمامًا.. مُعدل التزامن سليم أيضًا!.."

ولمستُ لذع التعجب والإحباط في طرف عبارته.

كنت أود قول شيء ما. ولكنني آثرتُ الصمت مُفكرًا.

صاح (شريف) بصوت محتقن:

-"ماذا يعـ.. "

قاطعته بانزعاج، مشيرًا إليه بالصمت. فأطاعني الرجل على الفور. وجلس ثانيةً بعدما كان قد انتفض من عبارة (جمال) السابقة.

شعرت بوجهي يتوهج في حنق عاجز.

اليد — الخيط — الدمية..

أين يختفي الخطأ وسط تلك العناصر؟ هـل الخطـأ في المنظومـة أنـها بلا أخطاء؟!

أي هراء هذا!

وحتــى إذا وُجـد الخطـأ.. كيـف لم يظهـر إلّـا الآن؟! كيـف وعناصر المنظومة كلـها ثابتـة لم تـتغير؟ كيـف واليـد مـا زالـت يـدًا والخيط ما زال خيطًا والدمية هي الدميـة؟!

فما أعلمه عن الزمن أنه يُزيد استقرار المنظومة المُستقرة.. ولا يُضعفها أو يشتتها مع امتداده إلى الأمام!

إذن، أين يوجد "الخطأ المجهول" هذا على حـد تعـبير نظـام الأعطال المُدمج ببرنامج التحكم؟!!

اشتعل الضوء الأحمر في مـؤخرة عقلـي. هـذه هـي المـرة الأولى التي يبلغ فيها انفعالي الداخلي هذه الدرجـة.. عقلـي لم يعتـد أبـدًا على الفوضى خاصةً الغامضة منها.. كحالتنا هذه.

حاولت التهدئة من ثورتي الداخلية، بينمـا قـال (جمـال) في حذر:

-"رويدك يا سيدي.."

و هاهي عبارته قد أتت لتؤكد انعكاس ثورتي على ملامحي. بعدما زفرتُ بعنف أجبته:

-"لا تقلق يا جمال.. أنا بخير.."

فكرتُ بصوت عالٍ:

-"ولكن الأمر وما فيه أن الخطأ غامض إلى أقصى درجة.. المنظومة متينة كسلسلة غليظة.. وهي في الوقت ذاته ضعيفة كخيط رفيع!"

بدا صوتي نابضًا بثورة داخلية تأبى أن تخمد.

مسح (شريف) جبهته، وقال مُترددًا:

-"أنكرر الاختبارات من جديد؟!.. لعل وعسى.."

فابتسمتُ بغير رغبة حقيقية، وأجبتُ مُتطلعًا إلى الأرض اللامعة:

-"الأمر.. للأسف.. ليس بهذه البساطة.. كما أن كفاءة الاختبارات لا غبار عليها.. لأنها في الأساس اختبارات بسيطة

للغاية ولا تتكلف مجهودًا خاصًا.."

ساخرًا، تذكرتُ للحظة ظنّي الأوّل ببساطة الخلل.. بل وبإمكانيّة مُعالجته عن طريق أحد الفنيين.

صمت تفكيري لثوان، متأثرًا بسخريتي السابقة.

ثُم استرجعتُ عبارتي الأخيرة : لأنها في الأساس اختبارات بسيطة للغاية ولا تتكلف مجهودًا خاصًا..

ولِمَ لا؟ ربما يحتاج الأمر مني إلى مجهود خاص..

إذن، لا أجد أمامي سوى عُنصر واحد يمكنني فحصه بطريقة أخرى..

اشرأب عنقي كأنما تبحث عيناي لا إراديًا عن حل اللغز فوق رفّ وهمي من الغموض. وقلتُ بعد استجماع الأمر:

-"العنصر الأخير.."

جاءت جملتي مُختصرة على عكس ما توقعت، لذا انطلقتُ آمرًا:

-"أريد إحدى الدُمى.."

نظر (شريف) لـ (جمال) بالتنفيذ، بينما قال الأخير، وهو يُقوم لإحضار الدمية:

-"لمَ؟!"

فانطلقت عبارتي مفعمة بأمل أتمنى ألّا يكون كاذبًا:

-"سأفحصها يدويًّا"

سألني (شريف) في لهفة واضحة:

-"ماذا يدور في خلدك؟"

-"دعنا لا نستبق الأحداث.. فلنتأكد من صحة نظريتي أولًا.."

"رائد الفضاء".. كانت الدمية التي أحضرها جمال. ناولني إياها، بينما أُحدق في خوذتها وخيالي يرسُم في لمعانها السرمديّ بوابة جديدة نحو حل اللغز.

* * *

كأنما صرتُ فجأة لونًا شاذًا عن لوحة متناغمة، توقف الـزمن عن سريانه بعقلي، بينمـا أتطلـع إلى كـود البرنـامج علـى الـشاشة في صدمة. ولوهلة اختلط داخلي الحاضر بالماضي.

لقد كانت دارات الدمية سليمة.. سليمة جدًّا في الواقع. ولكـن تركيزي كله انـصب علـى شـريحة تنظـيم حركـة الأطـراف.. فهـذه الشريحة هي أقوى مُكوّن لنظام الحركة في الدميـة.. حيـث بداخلـها برنامج مُتطوّر يُشرف على تمرير الإشارات الإلكترونية إلى الأطراف والتنسيق فيمـا بينهـا.. حتـى لا تتـداخل الإشـارات كلـها وتتخـبط الحركة المُختلفة للأطراف مع بعضها.

أذكـر أنـني أوصـلت الـشريحة بحاسـوبي، وقُمـتُ باختبـار البرنامج.. أذكر أنني ذُهلت كما لم أذهل من قبل.. أذكر أنني توقفت عن النطق بل عن التنفس لدهر.. حتى إن (جمال) سألني:

-"دكتور (يوسف).. هل أنت بخير؟"

وكما لي أن أتذكر، أذكر أنني لم أجبه.

بعد دهر الجمود. تمكنتُ من العودة إلى تيار الزمن الطبيعـي.

تنحنحت بحلقي المُتحشرج، وقلتُ مُتطلعًا إلى (جمال) -ومُحاولًا إبعاد نظري بصعوبة عن الشاشة-:

-"خلل.. هناك خلل تام في البرنامج.."

ربما كانت إجابتي مُقتضبة أكثر من اللازم. فلقد حملق فيّ الاثنان بحدقات مُتسعة في مزيج من التعجب والشك. وسرعان ما سألني (جمال):

-"ولكن كيف؟ ولماذا حدث ذلك الخلل؟!"

لم أجبه على الفور، لم يكن بإمكاني شرح الأمر الآن، خاصةً وأنني لم أفهم معالم المشكلة كاملةً. كان عليّ التنفيذ السريع.. بعدها يُمكنني فهم الأمر بهدوء.

نظرتُ إليهما في ثبات، وقلتُ مُحاولًا إخماد فوران الأسئلة في عقليهما:

-"في عوالم الحاسوب.. هناك بعض الأعطال التي تحدث بلا سبب واضح.. أو بمعنى أدق بلا سبب مباشر.."

-"والعمل؟"

هكذا سألني (شريف) بحذر.

أجبته بينما أقوم بنسخ صورة من البرنامج العجيب إلى جهاز الذاكرة الخاص بي :

- "سأقوم بنسخ البرنامج إلى جهازي لأفحصه لاحقًا على مهل و.. "

‹/ خطأ! عملية غير مشروعة.. البرنامج غير قابل للنسخ›

هكذا كان الرد على الشاشة!

التفت إليه، والصدمة ما زالت تعلو نبرات صوتي:

-"البرنامج .. لا يُنسخ!"

وصمتُ لحظة ثُم أضفتُ:

-"سيتطلب الأمر إعادة برمجة كاملة للشرائح.. لذا سأقوم الآن بحذف البرنامج تمهيدًا لذلك.."

وجرت يداي خلف كلماتي على الأزرار..

‹/خطأ! عملية غير مشروعة.. البرنامج غير قابل للحذف›

ساد صمت صدمتي على الكل للحظات، ثم لم يلبث أن ابتلع ريقه، وهو يكرر بارتباك:

-"ما العمل؟!"

التفتُّ ثانيةً إلى الشاشة، وعيناي الحيرى تُتابع الأكواد المتغيرة بشراسة. لذا لم أجبه على الفور، فقد تراجعتُ في المقعد محاولًا استجماع تفكيري. بعدها أغلقتُ نافذة الفحص البرمجيّ. ثُم التفتُّ إليه مستعيدًا إدراكي الكامل:

-"سنترك موضوع البحث في السبب الرئيسي للمشكلة مؤقتًا. نظرًا لضيق الوقت.. سأقدم لكم الحل السريع إلى أن أفهم ماذا يحدث بالضبط."

ووقفتُ مُضيفًا:

-"سنقوم باستبدال شرائح الدمى كلها.. ثُم سنبرمجها من جديد.."

قال (شريف) بصوت متجهم كملامحه:

-"كيف؟! ومن أين سنحضر مجموعة الشرائح في الوقت

الضيق هذا!"

محاولًا بث الطمأنينة فيه وفي نفسي:

-"أنسيت مجموعة الشرائح الاحتياطية التي نستخدمها كقطع غيار للصيانة؟!.. إنني أحتفظ بها في منزلي.."

لوهلة بدا أنه لم يستوعب ماذا قلتُ، ثُم أخيرًا بدأت تضاريس وجهه تلين: نصف خلاص- كانت هذه هي قراءة وجهه الممتلئ، ثُم سأل والقلق يسبح في حدقتيه الضيقتين:

-"وما المدة التي يستغرقها كل هذا؟!"

قدرتُ المُدة في ذهني، وأجبتُ ملوحًا بأصابعي:

-"من ثلاث إلى أربع ساعات تقريبًا".

-"فقط؟"

هكذا تساءل ووجهه المُتلئ يُنير بخلاص كامل، انعكس على وجه (جمال) هو الآخر. كانا يبدوان كأنما لا يُصدقان انتهاء الأمر.

أجبتُ بآلية طاغية تُحاكي آلاتي قبل الخلل:

-"نعم.. فقط"

عاد (شريف) يسأل:

-"ولكن ماذا لو تكرر الأمر؟"

كنت أخشى ذلك السؤال بالذات. ولكنني أجبتُ:

-"سأقوم بفحص الشرائح في مختبري حتى أصل إلى العيب الخفي الذي أدى إلى كل هذا .. ثُم سنعمل على إصلاح الأمر حتى لا يتكرر فيما بعد.."

بدا على ملامحه الرضا. أما أنا فرأيت في مرآة خيالي القلق يزحف بين ملامحي.

* * *

"أخيرًا!...

صحتُ بالكلمة لنفسي بصوت مسموع، بينما أدلف إلى المنزل، فأضيئت الردهة تلقائيًا.

انتهى الأمر..

أتممتُ باقي الجملة في عقلي بعدما تكاسل فمي عن النطق.

.. مؤقتًا"

كان جسدي يئن ألمًا من شدة نزيف عقلي وأعصابي. أما عقلي فكان في وضع عجيب بين تزاحم الأفكار و.. خوائها.. كوعاء ممتلئ ولكنه فارغ!

ارتميتُ على الأريكة الوثيرة في الردهة مُتطلعًا إلى المكان، كأنما طال غيابي عنه، مُستمعًا إلى صمت الصمت. ولأول مرّة منذ زمن أُدرك تلك الحقيقة البسيطة: الوحدة. أنا وحدي فعلًا في هذا المكان.. وحدي في العمل.. وحدي في الدنيا. لم يرافقني في رحلتي الطويلة سوى علمي.. وأفكاري.. وآلاتي.

آلاتي التي فعلتها لأول مرّة وخدعتني، كأنما سئمت من تلك الرفقة الكاثوليكية الأبديّة. فمنظومتي التي صممت ثناياها قد تمردت عليّ اليوم.

بالرغم من الإرهاق العنيف، وجدتُ عقلي يسبح بعيدًا عن جسدي المُجهد إلى آفاق التفكير.. والحيرة.. كيف حدث هذا؟ بل

ماذا حدث؟

لقد كان كل شيء يسير على خير ما يُرام. لفترة طويلة ظلت منظومة العرائس مستقرّة.. منذ متى؟ أعتقد سنة وتسعة أشهر تقريبًا.

إذن ماذا حدث؟ ولماذا الآن؟

تفجرت في كياني مخاوف غريبة، دفعتني دفعًا إلى الاعتدال، ناظرًا إلى الحقيبة كأنما يختفي داخلها وحش مخيف يتربص بي. لذا -رغم الإرهاق الذي يكبّل كياني- وجدتُني أتجه بآلية إلى حقيبتي الصغيرة، مُخرجًا إحدى الشرائح التي تحوي البرنامج المختل مُتجهًا بها إلى معملي. وقد لازمني شعور غريب أن الشريحة هي التي تحملني بكل ما بها من مفاجآت.

أوصلتُ الشريحة بمنصّة خاصة للولوج إليها عن طريق حاسوبي المفتوح، وجلستُ مُحدقًا في كود البرنامج مفتونًا بسلوك أكواده الـ.. الشاذ. كانت أكواد البرنامج تتبدل وتتغير.. بل وتتضاعف كأنما تتزاوج. كسرطان نافذ .. أو كفكرة بشريّة!.. فكرة

أم تتشكل وتتفرَّع، حتى يصير لها فروع باسقة في أطراف العقل المُختلفة.

حارت عيناي بين موجات الأرقام المُضطربة والمشوّهة..

وحاولتُ عبثًا البحث عن كود مألوف يمكنني الانطلاق به كقاعدة – كغريق يبحث عن قشّة في غمار بحر هائج. ولكن بلا فائدة..

انقطع الإرسال بين بصري وعقلي، فلم أعد أرى سوى أفكاري وخواطري تتلاطم في اضطراب خلف أفق خافت من أكواد البرنامج الشاذة..

لطالما اعتمدت برامج الحوسبة على قواعد ثابتة.. على أرقام وأكواد ثابتة تعمل بنظام دقيق لا عبث فيه ولا عشوائية. حتى المُتغيرات فيها محدودة ومعدودة. الحواسيب بيئة مُعقمة جدًّا.. صارمة جدا. وهكذا كانت منظومتي: منظومة مُحصنة.. مُستقرة.. منغلقة على ذاتها. ولكنها انقلبت تمامًا على نفسها قبل أن تنقلب عليّ. لقد استطاعت خلق نوع جديد من العشوائية لم يعرفه عالم الحوسبة قط. ونجحت في كسر قواعد كانت هي أول ما طبقها.

تراجعت بظهري إلى الخلف مُغمضًا، بينما تبهت الأفكار ويذوب وجودها الحاد في ظلام عقلي الداني..

"العالم الكبير يوسف عبد الوهاب .."

فتحتُ عينيّ باتساعهما بينما ينتفض جسدي مع عقلي من تيارات النوم المُخدرة، عندما انبعث ذلك الصوت الآلي الهادئ من سماعات الحاسوب.

ما هذا الهراء؟! ليس من المفترض أن..

"أنت تفكر الآن كيف ينبعث الصوت من مكبرات حاسوبك .. ولا شك أنك في حيرة شديدة عمّا يحدث الآن.. ولكن دعني أخبرك: لقد اخترقنا حاسوبك.."

تسارع نبض قلبي، وجرت أصابعي خلفه على أزرار الحاسوب لتفعيل برنامج التتبع. جرت علامة التحميل وبدأ البرنامج يعمل باحثًا في عباب الشبكة عن ذلك المتطفل الوقح..

"..تمامًا كما اخترقنا منظومتك!"

هوى الدم إلى قدميّ، وتجمدتُ في مكاني مع الكلمة الأخيرة

بينما أسمع صوت أنفاسي واضحًا خلال لحظات صمته. لم أستطع التفكير بشيء، فقط كان عنوان الموقف الأوحد هو : الصدمة.

أكمل الصوت الآلي ببرود:

"أولًا لنتعارف.. بالتأكيد نحن نعرفك جيدًا.. ولكنك لا تعرفنا.. ولكن يكفيك أننا نُدعى (المنظومة) .. ولقد لقبنا أنفسنا بذلك الاسم تيمنًا بمنظومتك الرائعة..

للعلم نحن نحبك ونحترمك كثيرًا.. فأنت مثلنا الأعلى.. لذا فقد قررنا معابثتك واختراق منظومتك.. هل أعجبك العرض؟ نتمنى ذلك..

لا لسنا مجانين ولا نفعل ذلك لمجرد العبث كما لا بد أنه يخطر ببالك الآن.. فهدفنا أسمى وأعمق من ذلك بكثير.. منظومتك كانت بالنسبة لنا منظومة كاملة من الإبداع.. سواء على المستوى التقنيّ أو الفنيّ.. وكان ذلك بمثابة تحدٍّ قويّ لنا. فكما أبدعت أنت في منظومتك.. عزمنا نحن على الإبداع في اختراقها.

الأمر ليس غريبًا إلى ذلك الحد.. فالإبداع يظل إبداعًا سواء

كان بنّاءً أو هدّامًا.. ولديك الكثير من الأمثلة منذ اختراع النار وكتب السحر حتى القنبلة النووية.. الإبداع فعل حياديّ لا يعترف بالميول ووجهات النظر..

كانت عملية اختراق منظومتك خير بداية لنا.. وقد حققنا فيها نجاحًا باهرًا كما تلاحظ.. وسنعمل منذ اليوم على ترسيخ هذا النجاح أكثر وأكثر..

تقول إننا سنسقط يومًا.. نقول لك: محال. والأمر لا يعود إلى غطرسة فارغة منّا.. فبجميع حسابات المنطق نحن أقوى بكثير مما تتخيّل.. ونعتقد أن اختراق منظومتك ثُم شبكتك أكبر دليل على ذلك بالنسبة لك على الأقل. أما بالنسبة لبرنامج تتبعك فهو لن يصلح وتأكد من ذلك بنفسك.. كما أن الرسالة ذاتها ستُمحى من حاسوبك كأنما لم توجد قط."

على الرغم من تحرري من الصدمة بعض الشيء، إلّا أنني لم أستطع مجابهة الصوت ولو بكلمة. بصمت فتحتُ نافذة نتيجة عملية التتبع، فأخبرني البرنامج بعدم ثبوت حالة اختراق.

ماذا تريدون إذن؟!

ارتعشت أصابعي المستلقية على الأزرار أكثر.. وابتلعت ريقي عبر حلقي الجاف لأترجم خواطري إلى كلمات، ولكنه عاد يُكمل:

"في نهاية رسالتنا.. نوصيك خيرًا بمنظومتك .. نعلم أنك ستفعلها وستعالج ثغرة البرنامج .. ونحن نتوق إلى ذلك .. فكما سبق أن أخبرتك سيكون ذلك تحديًا جديدًا لنا..

اعتبرها مباراة مفتوحة الزمن بيننا .. ولنر من سيتفوق على من.. ومن سيسقط أولًا..

إلى لقاء آخر يا أستاذنا العزيز"

ساد الصمت مُعلنًا نهاية رسالتـ.. ـهم. أيّة جماعة حمقى هؤلاء؟ ولكن الحق أن حماقتهم تُرعبني.. ولا أدري ما الذي يُمكن أن أفعله؟!

إن أخطر أنواع العشوائية هو ذلك النوع الذي ينتهجونه. كأنما يريدون القول من خلال ما فعلوه بمنظومتي: إن العشوائية أيضًا هي نوع من الإبداع!

كآلي يحتاج إلى شحنه بالطاقة، تقافزت أصابعي المهزوزة

ببطء على لوحة الأزرار في محاولة لإيجاد الثغرة التي اخترقوا عبرها الشبكة ونظام التشغيل، فلم أجد. فركتُ جبهتي في تفكير وتوتر ثُم انزعاج.. إن أكثر ما يزعجني هو ذلك التوتر الذي يعيق تفكيري. والآن بدأتُ أغضب..

لكنني لن أصمت.. لن أقف عاجزًا أمام عبثيتكم أيها الحمقى!.. لن أقف مُنتظرًا استبداد عشوائيتكم في كل مكان.. وإسقاطها لكل منظومة متغنين بالإبداع الحُر. فحتى الإبداع له قواعده.. وقد عزمتُ على أن أكون من سيعلمكم تلك القواعد.

عدتُ إلى جلستي المسترخية السابقة. وسحبتُ الأنفاس بعمق وبطء – محاولًا تهدئة انفعالي. كان الأمر بادئ ذي بدء صعبًا.. ولكن مع الوقت بدأتُ أهدأ وأملك زمام أعصابي..

وبعد خمس دقائق أو يزيد، اعتدلتُ أمام حاسوبي بروح جديدة كأنما بُعثت من أعماق إرهاقي وغضبي ويأسي. فتحتُ نافذة البرنامج المشوه مُحدّقًا في الأكواد المتتابعة بحدّة وحماس مشتعلين..

من الليلة لن يكون في حياتي هدف سوى إسقاطكم. فكما قلتم

في رسالتكم: هي مباراة، لا بل إنما هي حرب.. وسيثبت الـزمن مـن هو الطرف الظافر فيها.. ومن الطرف المدحور.

أشباح السايبر

-1-

غلّفنا الصمت والليل للحظات خيُل لي أنها أبديّة كشعاع القمر الراقص فوقنا على الموسيقى الصاخبة بالداخل.

نظـرتُ إلى وجههـا الـسابح في الخيـال القمـريّ، وعينيهـا السوداوين اللامعتين بقرصه مُصغرًا كمرآة كونية صغيرة، فرسـم لـي عشرات اللوحات المتلوّنة بعشرات المعاني دون صوت: بنفس الصمت كالذي يغلفنا.

رائعة هي..

مثيرة هي..

هي..

كُنـتُ في قمـة نـشوتي بعـدما أخـذتُ حبـة أخـرى مـن (السايبروفيون)، وأنا في طريقي إلى خارج الملهى. أما هي، فقد كانت

على نفس وضعها وطلتها. تُحدق بي في شيء من.. النشهوة ربما.. الهوس ربما.. الحب؟! هل يمكن أن نسمي ما بيننا بالحب؟ تساؤل لم أطرحه على نفسي من قبل!

قطعت تساؤلاتي، عندما قالت مبتسمة:

-"أمعك حبة أخرى؟"

مددتُ يدي في جيبي دون أن أحيد بنظري عنها. أخرجت الحبة الورديّة من العلبة، ووضعتها في يدها. بينما تلامس أطراف أصابعي كفها، شعرت بوخز خفيف يسري في أوصالي.. إنني.. لا أدري ما الكلمة المناسبة!.. فلأقل أنني أحبها إذن حتى حين!

تناولت الحبة مني، ودفعتها عبر شفتيها الرائعتين ثُم ابتلعتها على الفور .. وانتظرتُ مراقبًا إياها والوخز العجيب يدغدغ عروقي، بينما يمر نفس الوخز بجسدها كما تفصح الرعشة الخفيفة التي انتابته.

شعرتُ أنني هي وهي أنا، كما لو كان الوخز المدهش ذلك بحرًا يسبح فيه جسدانا فقط. قلتُ لها :

-"أتعلمين.. ربما أنا أحبك!"

معيدة نظرها إليّ، أجابت:

-"أتعلم.. ربما أنا أيضًا!"

تنهدت بقوة، ثُم تراجع جسدها متسرسلاً على الأرض العشبيّة، وشعرها ينسدل خلفها كخيوط من نسيج ليليّ ساحر.

كما فعلت فعلتُ، فلفحت أنفي رائحة العشب ممتزجة برائحتها. أما هي فكانت تقول وكلانا يتطلع إلى السماء البنفسجيّة:

-"بماذا تحلم؟!"

تخيلتُ وجهها على صفحة القمر الماثل أمامي أخاطبه، وقلتُ:

-"أحلم بترقية جديدة وأن أكون.."

قاطعتني قائلةً:

-"لا.. لا.. أنا أقصد هنا.. في هذا العالم.. في هذه المدينة الغريبة الأشبه بسيرك منصوب إلى الأبد.."

صدمني سؤالها فزاد الوخز الذي يدغدغ أوصالي. كان وقع السؤال عليّ كحيوان اكتشف فجأة أنه كذلك!

مرت لحيظات قصار فيها ارتبكت أفكاري مع كياني، ثُم قلتُ:

-"ربما تندهشين.. ولكنني لم أفكر في ذلك مُطلقًا من قبل.. ففي هذا العالم.. لا يوجد مثل هذا السؤال.. نحن نثب إلى هنا ليلًا كي نستمتع.. كي نفجر جميع أنواع الكبت التي تفرضه علينا الحياة الواقعية.. نضحك.. نصرخ.. نرقص.. نقتل.. بل ونُقتل!

ونستيقظ في واقعنا غير ذاكرين من ذلك سوى الفتات.. فتستقر أرواحنا في العالم الحقيقيّ..

في رأيي لا يوجد في الاستمتاع طموح ومستويات.. هنالك فقط أن تستمتع أكثر وأكثر وأكثر!"

رغم أنني لم أكن أنظر إليها، إلّا أنني شعرت بوجهها المرسوم في خيالي يمط شفتيه. بينما أسمعها تُجيب:

-"السؤال أيضًا لم يخطر على بالي سوى الآن.. ولا تسألني

لماذا فأنا لا أعلم!.."

صمتت للحظة، مُصدرة طرقعة خفيفة بلسانها، ثُم أضافت:

-"ربما لأن شعور المرء بالقرب من أحدهم يساعده على إخراج كل ما يتكتمه صدره.. أو لأنها ربما المرة الأولى التي أنظر فيها لسماء جنة السايبر بهذا الإمعان .. وأشعر بسحرها..

ولكن فكر معي.. ماذا نُريد من هنا حقًا؟!"

لم أفهم ماذا تُريد بالضبط.. أو على الأرجح لم يرق لي السؤال. أحيانًا يفتح السؤال المجاب مسبقًا نوعًا من المتاهات العقلية المجنونة. ربما تناسب المتاهات العالم الذي نعيش فيه الآن. ولكنني لم أستطع الخوض فيها لمسافة أبعد. لذا قُلتُ قاطعًا الطريق لذلك:

-"سأسألك سؤالًا واحدًا.. هل اكتفيتِ من المتعة هنا؟"

لمحت بطرف عينيّ وجهها يستدير إليّ، فنظرت لها وهي تقول:

-"لا"

كان على وجهها نفس الابتسامة الغريبة السابقة، كأنما

وجهها يناديني كي أسبح بين خلجاته.. لقد فهمت.

كُنتُ على وشك الحديث، عندما أضافت هي هازّة رأسها:

-"الحقيقة.. أنني حتى وقت قريب.. كان يراودني إحساس أنني أدخل السايبر هنا كمُجرد واجب مفروض عليّ.. أنت تعلم ذلك الشعور.. أن تشعر كأنك سجين لفعل مُعين.. مُستمتعًا به أثناء فعله.. ثُم بعدها تتساءل: لماذا أفعل ما أفعل؟! ولماذا صرتُ مُضطرًا إلى فعله مُستمتعًا بذلك؟!

إلى أن.."

صمتت لحظة سمعت فيها صوت ريقها، ثم أضافت:

-"إلى أن قابلتك.."

مسَّ كلامها وترًا خفيًّا في أعماقي. نعم لقد شعرتُ بالشعور ذاته تجاه السايبر من قبل.. أم هو مُجرد ديجافو آخر للأحاسيس؟!

ساد الصمت بيننا مرّة أخرى، إذ فكر كلانا في نفس الاتجاه. جاش قلبي بالكثير من الانفعالات العجيبة.. ولكنني ببساطة لا أعرف كيف أفتحه لأفرغها!.. أيّة كلمة سحريّة تلك التي تفتح

الصمامات محكمة الإغلاق؟

راودتني رغبة مُفاجئة عجيبة في البكاء .. أبكي وأبكي حتى تجف عيناي وتتحجر .. حتى تتقرّح جفوني ويتقلص وجهي.

في هذه اللحظة، طافت أمام القمر سحابة خفيفة ناعمة، حاملة معها رائحة مُسكرة أخرى من تلك الروائح التي تفوح بها مدينة (الصخب والأضواء) دون أن تعلم مصدرها. سكرة الرائحة أفقدتني خيط أفكاري وأنستني الرغبة السابقة في البكاء مُوقظةً داخلي المشاعر التي قد خمدت مع حديثنا بعض الشيء ..

لذا وجدتني أقوم من رقودي، وأنحني عليها، بينما قلبي يدق بعنف.. اشتبكت عيناي بعينيها في عناق طويل قبل أن..

* * *

القمر.. الليل.. النجوم..

.. الصخب.. الأضواء.. الرائحة..

.. هي.. هي.. هي..

وليلة جديدة في السايبر بعد يوم آخر من أيام العمل المُجهـدة. فما ألذ أن يحيا المرء حياتين في يوم واحد؛ حياة عملية شاقة تتبعها حياة صاخبة مرحة تنسيه همّ الأولى. وكل هذا بمُجرد قرص واحد من (السايبرو-جين)، يضع العقل مباشرةً في تردد عالم الأحلام السيبريّ.

كان جسدها المُنهك نائمًا بجواري من الليلة المذهلة السابقة، ووجهها في وجهي، تلفحه أنفاسها الدافئة المُنتظمة.

ارتديت ملابسي في سرعة تاركًا إياها مستلقية، بينما انطلقتُ سيرًا إلى المقهى تحت التلّة التي يرتقيها الملهى. وبينما أسير، تركتُ أفكاري تشرد مع عينيّ في جموع البشر المتناثرين هنا وهناك.. في أحضان المدينة الصاخبة.

صراخ ورقص هنا.. عراك ودماء هُناك ..

دفء وأحضان هُنا.. بكاء وعويل هناك..

تأثير مدهش ذلك الذي يصنعه السايبر بنا. هنا نصير كالحيوانات الجائعة المتعطشة للجموح.. كمصاصي دماء نغرس

أنيابنا في أوردة الأحلام.. ممتصين كل ما تحويه من شهوات.

كل ذلك وسط الزحام. زحام شديد بلا مُبرر مُقنع، فقد كان منحدر التلّة شاسعًا مُمتدًّا بل فارغًا أيضًا.

سألت أحد المارين بجواري عن السبب، فنظر لي بعينين زائغتين قائلًا بما يقرب الصراخ: "زحام.. زحاااااام.. راااااااااائع!"

يبدو أنهم مجموعة يعانون الوحدة لذا يلتصقون بالآخرين حبًّا في الاحتكاك والحديث مع أقرانهم.. قد تكون هذه الرغبة مجنونة في العالم الحقيقي ولكن ليس هنا. هناك رجل عارٍ يجري بعنف ثُم يقفز طائرًا وهو يصرخ .. نعم هنا نستطيع الطيران.. يمكننا فعل أي شيء وكل شيء..

السايبر هو أرض رغباتنا.. أرض أحلامنا الضائعة.

وقفت أمام واجهة المقهى المُبهرجة، ونظرت إلى جمع الناس المُكتظ بالداخل، ثُم دلفت إليه حاشرًا جسدي. بعد زمن بدا لي كالدهر من العرق بالمزوج بروائح مُختلطة منها ما هو ساحر ومنها ما هو نافر – وصلتُ إلى الخادم.

بينما تضرب موجات التدافع البشرية ظهري، قلتُ له مُشيرًا:

-"بلاكابورا.. كأسان.."

لم ينظر إليّ. فقط أحضر كأسين وملأهما من ماكينة آليّة لديه بالمشروب الأسود، ثُم أعطاني إياهما.

التقطتُ الكأسين المغلقين بصمام شاكرًا إياه بخفوت، مُتسائلًا لماذا لا يتم الأمر من خلال ماكينات آليّة سريعة دون وسيط - كما في العالم الحقيقيّ بدلًا من تلك المعاناة.. ولكن ربما يريدون محاكاة العالم القديم وما به من بدائية مثيرة.

خرجتُ من الزحام بالكأسين سليمين وهي أعجوبة أخرى، ثُم أسرعتُ الخطا إلى أعلى التلّة.

* * *

وصلتُ إليها لاهثًا فوجدتها قد استيقظت. كانت ترتدي ملابسها.

قلتُ لها مُبتسمًا:

-"مساء الخير!.. بلاكابورا مشروبنا المفضل!"

فنظرت لي بامتنان بينما تغلق قميصها، ثُم التقطت الكأس مني قائلةً:

-"شكرًا"

جلسنا على العشب معًا كالليلة السابقة، نتجرّع الأفكار المجنونة مع الـ(بلاكابورا) اللاذع المذاق، بينما نرى من فوق التلّة مدينة (الصخب والأضواء) تسطع وتتألق، كزمردة ماجنة تُشع بالعبث. ويحيط بالمدينة سلسلة من التلال التي نقف على إحداها، على كل تلّة مُجمع ترفيهيّ مختلف بالإضافة إلى مجموعة من المقاهي عند السفح.

تحت التلة يمكنني أن أرى انفجارا هنا وآخر هناك .. يمكنني سماع صخب الملاهي.. يمكنني أن أرى الأضواء الراقصة التي تُرسل أشعتها إلى عنان السماء البنفسجيّة.. بألوان الطيف.

قالت مائلة برأسها نحوي وهي تبتسم:

-"ماذا تقترح؟!"

فكرتُ لبرهة محاولًا الابتكار، ثُم لم ألبث أن أجبتُ:

-"الملهى إذن.."

أنهينا كأسينا، ثُم قمنا من موضعنا الذي انتقيناه بعناية ليكون أكثر هدوءًا وأقل زحامًا، ثُم دخلنا الملهى.

قبل أن ندخل أخذ كلٌّ منّا حبة (سايبروفيون) مُجددًا نشوته، ثُم انسقنا وراء الجموع.. شعرنا بالموسيقى الصاخبة تخترق أجسادنا حتى أرواحنا فتنفضنا نفضًا.. منّا من رقص بحركات تقلصيّة عنيفة.. ومنّا من بكي بحرقة..أنا شخصيا اتحدتُ مع (ليانا) في صرخة متصلة.. صرخنا بعنف حتى كادت حلوقنا تحترق.

الصخب.. تخبط الأجساد.. الضوء الخاطف.. عناصر أحاطت بكياني كالسوار، فأدارت رأسي معها بشدة حتى كدتُ أفقد وعيي.. بدأت أهذي وأرى أشباحًا طائرة في فضاء المكان .. فضحكتُ بعنف وتحدثت بأشياء لم أفهمها ولم أكترث أن أفعل.

أما (ليانا) فكانت أمامي، يغمر جسدها العرق من الخارج كما تفعل الموسيقى به من الداخل.. بدت مستمعةً تمامًا .. و..

كان خلفها مباشرة.

ذلك الأحمق الذي التفت إليها. من خلال الضوء الخاطف رأيت في عينيه رغبته. بدأ يحاول أن يحيط ذراعيه حول وسطها، عندها تقدمتُ إليه صائحًا:

-"ابتعد يا هذا.."

انتبهت لما كان يحاول فعله، ولكنها صمتت تاركةً لي المجال، أما هو فقال بلهجة مستفزّة:

-"الجميلة لا تمانع.. فما بالك يا أحمق!"

كانت عبارته بمثابة النار في فتيل الاشتباك الذي انفجر بيننا.

تبادلنا اللكمات بأعنف قوّة ممكنة. وعلى الرغم من وقاحته وقوته، شعر جزء مني بالخلاص والراحة مع تطاير الدماء من كلينا. فقط كل ما كُنتُ أريده هو أن أظل ألكمه ويلكمني إلى الأبد.

نسيت كل شيء. اختفى في نظري الجمع الرهيب غير المُكترث والمُحيط بنا. صاروا مجرد صورة بعيدة حولنا.. وصارت حلبة الدنيا

فارغة إلّا مني ومنه ومن (ليانا).

فجأة، دفعني بعيدًا عنه فارتطم ظهري بأحد الراقصين خلفي، ثُم أخرج مسدسًا وصوّبه نحوي. لم أشعر بنفسي إلّا وجسدي الغارق في العرق يقفز ليصير أمامه، ويكبّل حركته دافعًا يده المُمسكة بالمُسدس بعيدًا.

ولكن الطلقة انطلقت بالفعل.. نحوها.

لثانية واحدة، تجمد المشهد في عقلي كفيلم. بينما هي تُحدق في الدماء التي أغرقت صدرها في ذهول.. هنا فقط لم أشعر بنفسي على الإطلاق.. و..

صرختُ بأعنف قوّة ممكُنة، حتى خُيّل إليّ أن حنجرتي ستقفز من حلقي إلى الخارج. أمسكتُ به بعنف وأخذتُ المُسدس وسط جموده وأطلقت النار.. أطلقت وأطلقت وأطلقت حتى فرغ المسدس تمامًا.. وحتى فرغ جسده من الروح كذلك!

تركته يسقط أرضًا مُضرجًا في دمائه، وهرعتُ إلى (ليانا). حملتها إلى الخارج وسط الجمع الراقص وغير العابئ.. حتى خرجتُ

إلى الفضاء العُشبي خارج الملهى.

كان خداها الأحمران سابقًا شاحبين حاليًا، وعيناها المتألقتان سابقًا زائغتين حائرتين في الفراغ حولي، بينما صدرها غارق تمامًا بدماء ساخنة ما زالت تهرب من جسدها في وقاحة .. وكأنها لا تنتمي إلى ذلك الجسد.

رغم كل شيء كانت تبتسم. قالت بصعوبة:

-"ماذا.. بكككك؟.. ألم تمت في السايبر من قبل؟!"

قلتُ وأنا على وشك البكاء:

-"لا.."

فقالت بأقصى سرعة استطاعتها، كأنما تسابق الموت لقولها:

-"لا تقلق.. سألقاك.. غدًا.."

أجبتُ والدموع تهرب من عينيّ لأوّل مرّة:

-"أعلم.. ولكنني فقط.."

زاغت عيناها أكثر، وحاولت قول شيء ما، ولكن.. كان الموت

أسبق.

بدت شفتاها وهي تلفظ روحها وكأنها تهمس بلا صوت:

-"أحبك"

ثُم تراخى جسدها تمامًا.

-2-

تجمد كل شيء في عقلي.. كما لو كان ما يحويه من أفكار سائلة كالماء صار ثلجًا. بينما أحدق في الفراغ.

أما جسدها الخاوي، فكان يرقد بجواري في سلام، وقد قُمتُ بتغيير ملابسها المغسولة بالدماء إلى ملابس نظيفة من حقيبتها الصغيرة -استعدادًا لعودتها.

من يموت في السايبر يعود في الليلة التالية .. هكذا يقولون دائمًا.. أم تُراهم يخادعون؟!

لا أعتقد أن في الأمر خدعة، فالموت في السايبر ليس موتًا

حقيقيًّا بأيّة حال.. فقد استطاعوا فصل آلية الحلُم بالموت في السايبر عن الجسد الواقعي.. لذا لا بد أنها ستعود في الليلة التالية.. حتمًا.

من المستحيل الخُروج من السايبر الآن فجرعة (السايبروجين) ما زالت قويّة.. لذا..

لماذا لا أقتل نفسي أنا الآخر؟

إنها بضعة ساعات.. ثُم سأراها أمامي حيّة تُرزق.. ما المُشكلة؟

من الغريب أنني لم أسألها يومًا عن نفسها في العالم الحقيقي .. لقد أحببتها هُنا.. لقد أدمنتها هنا.

إذن لماذا لا تلحق بها؟! لماذا كل هذا العذاب؟! اقتل نفسك إذن وستجدها أمامك تضحك غدًا!

"ماذا.. بكككك؟.. ألم تمت في السايبر من قبل؟!"

رنت عبارتها الواهنة في رأسي.. لم لا أفعل؟ هي تجربة جديدة أخرى.. ولن أخسر شيئا على الإطلاق.. بل سأكون فائزًا!

انتبهت مرّة أخرى إلى ما حولى، وكأن عيني استعادت فجأة

قدرتهما على الرؤية. فنظرتُ إلى حافة التلّة في رغبة ممزوجة بالرهبة. نعم الكلام سهل ولكن أن تقتل نفسك ليس بتلك البساطة!

شعرتُ كأنما يوجد شخصان في صدري يصارعان بعضهما البعض على مائدة حياتي.. أموت أم لا أموت؟

ثُم حسمتُ ترددي..

"سأفعلها من أجلك.."

صحتُ بالعبارة في صوت مسموع بينما يطوف في خيالي وجهها مُبتسمًا مُتألقًا. وقفتُ فسارع قلبي نبضه مُتربصًا النهاية. وددتُ للحظة ألّا أفعلها ولكن.. شعرتُ كأنما ترفض قدمي أوامر عقلي، فلقد انقبضتا بأقصى قوتيهما ثُم اندفعتا وأنا فوقهما عبر الحافة إلى.. أسفلللل..

صرختْ فدوى صوتي بين التلال:

-"من أجلككك!!!!!!"

شعور ساحر هو السقوط.. لا أرض تحت قدميّ.. لا دعائم.. لا شيء.. فقط سقوط حُر وإحساس جذّاب مُنوّم بالدوار.. وأرض

الـصخب والأضـواء تـدور حـول نفـسها وحـول جـسدي وتقـتـرب.. وتقترب.. ثُم الأرض.. والارتطام الهائل .. و..

استيقاظ!

اندفع الوعي كـصاروخ عـبر ممـرات نـومي المظلمـة، لأعتـدل دفعة واحدة.

"ليلة أخرى.."

قلتها بصوت مسموع، بينما أُركز فيما حولي.

كُنتُ في نفس المكان الذي جعلناه محطـة دخـولي إلى الـسايبر منذ ليالٍ عدّة.. كان ذلك الموقع فوق التلّة. مسّني النسيم العطِر، فبرّد جزءا من حرارة جسدي. بدأتُ أهدأ شيئًا فشيئًا. ثُم تذكرتها.. تُـرى أين هي؟ ألم تأت بعد؟

هرول قلبي في مكانه والخوف يملـؤه، بينما أنتظرهـا دائـرًا برأسي وعينِيّ هنا وهناك متلهفًا قدومها.

لماذا لم تأت بعد؟ أتُرى ماتت في العالم الحقيقي أيضًا؟!

نفضت الاحتمال مع هزّة رأسي، بينما يستمر النـسيم الفـوّاح

محاولًا استمالة رأسي إلى السُكر اللذيذ.. ولكن ليَس الآن.

انتظرتُ وانتظرتُ .. ومع كل دقيقة تمرّ كان توتري يزداد يتعاظم.. ربما هذه هي المرة الأولى التي أتوتر فيها هنا.

"لا تقلق.. سألقاك.. غدًا.."

مرت الساعة تلو الأخرى، والصخب كما هو.. الأضواء كما هي.. الرائحة كما هي.. ولكن (ليانا).. أين أنت؟!

* * *

ببلاهة تامة، كُنت على نفس جلستي السابقة، والتي امتدت خمس ليال كاملة.. خمس ليال!.. فقط أنتظر.

من يرني على تلك الحال، يظن أنني في العالم الواقعي، حيثُ عليّ أن أحمل هموما وأعباء شتى.. ولكن هُنا؟!.في عالم الرغبات والمُتع؟!

ربما هي مشغولة ولم تدخل إلى السايبر من وقتها .. أو ربما أفزعتها الليلة الأخيرة فقررت ألّا تدخل مرّة أخرى .. ولكن ماذا عنّي؟! ماذا؟!

لم أعد أستطيع الاحتمال..

قُمتُ من جلستي على التلّة، ونظرتُ بوجوم إلى الملهى الصاخب، والذي حفلت به أحداث الأمس.. ثُم بدأت أحث الخُطا عبر الأرض المُنحدرة إلى السفح.. هناك خطأ ما بالتأكيد.

سأقصد قلب المدينة .. سأبحث عنها في كل مكان.

ربما حوّلت بوابة دخولها إلى مدينة أخرى؟! ولكن لماذا تفعل بأيّة حال؟! ماذا عن: "لا تقلق.. سألقاك.. غدًا.."

غلى عقلي بالتساؤلات في مزيج من الحنق والعجز بينما أشق طريقي وسط أمواج البشر ونزواتهم.

لم أعد أسمع الصخب.. لم أعد أرى الأضواء. كان وعيي مفقودًا عدا ذلك الجزء مني الذي يبحث عنها جسديّا ومعنويًّا.. بالأقدام الحائرة والتساؤلات التي لم أجد لها إجابة.

قررت أن أذهب إلى أحد مكاتب الاستعلام. أعتقد أن تلك الخطوة الأنسب.

مرت بي آلاف الروائح ولكنها لم تسكرني.. تفاديت عددًا

لانهائيًّا من المعارك اليدوية والتجماعات الخانقة الصارخة.. مررت بآلاف الفاتنات التي نظرن لي بنظراتهن ذات المغزى. ثُم انتقيت أحد المارين والذي بدا عليه بعض علامات التعقل، وسألته عن المكان، فوصفه لي.

دارت كل تلك الأحداث بطريقة لم أعيها، ولم أبذل جهدًا في ذلك. أخيرًا كُنتُ أمام المبنى العملاق.

استقللتُ أحد المصاعد حتى وصلتُ إلى طابق الاستعلامات عن الأشخاص المُقسّم إلى قطاعات شاسعة لاستيعاب الأعداد الضخمة. وقفتُ في الصف الطويل منتظرًا أمام أحد المكاتب في القطاع الذي انتقيته.. وتمنيت دوري يأتي الآن.. حالاً.

-"الجو خانق هنا.."

بذلك القول المتنهد حاولت إحداهن فتح جسور حوار معي. ولكنني لم أرد.. بالأدق لم أجد أيّة قوّة أو رغبة تدفعني للرد.

يبدو أنها سئمتني على الفور، وصمتت.. خيرٌ لها إذن!

سرحتُ لفترة لا أعلم مداها. أحيانًا يكون للشرود ميزاته،

لقتل أوقات تحتاج إلى قتلها، كما هو الحال هنا.

عندما أفقتُ وجدتني أمام موظف الاستعلام. قال:

-"بم يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟ عمّن تُحب أن تستعلم؟"

فأجبته على الفور مُحدقًا في ملامحه المُهندمة كثيابه:

-"(ليانا).."

نظر لي كأنما يسبني بعقله، ثُم قال:

-"ما رقم التعريف الخاص بها؟"

فتشت في ذاكرتي عن الرقم .."177209AXL".. نعم تذكرته الآن.

أمليته الرقم، وهو يكتبه على الشاشة لديه، ثُم قال:

-"لحظة من فضلك.."

ثُم بدا على وجهه التجهُم، وقال:

-"سيدي.. لا توجد من تحمل هذا الرقم وتُدعى (ليانا).."

انتشرت موجة ساخنة في صدري، كنمل من شظايات ملتهبة

يزحف داخله..

هه؟! ماذا تعني أيها المأفون؟!

-"ماذا تعني؟"

قلتها بأهذب اللهجات المُمكنة في الوقت الحالي. فأجاب على الفور:

-"من يحمل هذه الهويّة هو ذكر ويُدعى (آلان).."

لا أصدق هذا!.. ببساطة لا أصدق!

حاولتُ الخروج من جمودي قائلًا:

-"متأكد؟ ألا يحتمل أن يكون هناك خطأ ما لديكم؟"

-"لا يا سيدي.. نحن متأكدون ما دمت متأكدًا من رقم التعريف.."

أنا متأكد من رقم التعريف.. ماذا أفعل إذن؟!

قلتُ له مُبتلعًا ريقي:

-"إذن أعطني موقع ولوج (آلان) إلى السايبر"

دون دهشة أو تـردد، أعطـاني مكـان الموقـع بآليـة، فحفظتـه مُفسحًا لمن خلفي بلا رد.

عليّ الآن أن أُعدل موقع ولوجي ليكون قريبًا منه. وهي عملية بسيطة بمُجرد الرغبة في ذلك.. حيث يتم تسجيلها بالخـادم المُحـرك للسايبر على الفور.

و في الخارج أمام المبنى، جستُ في الجموع بعيـنين لا تريـان، قائلًا:

-"غدًا سيكون بيني وبين (آلان) هذا حديث شيق.. حقًّا"

* * *

حظيرة.

كان مكان ولـوجي الجديـد أشبه بحظـيرة. فـالأرض ترابيـة ولكن دون الأكشاك الخشبيّة العملاقة التي تحوي الخيول في العـادة. باختصار كانـت الـساحة الـتي هبطـتُ في أحـد أطرافهـا تحمـل روح وربما عطر حظائر الخيول.

ثم بدأتُ أعي ما يحدث حولي. كُنتُ في مُقدمة جمع هائل مـن

الناس خلفي، نُمثل جزءا من دائرة كبيرة غير كاملة في الطرف المُقابل لي تمامًا. أمامنا في منتصف الدائرة رجل ضخم الجثّة عضليّ البنية على اليمين، أمّا على الطرف الآخر..!

على الطرف الآخر كان هناك حيوان. أو هو خليط مُركب من أكثر من نوع. بنيته حصان قوي مع رأس أسد أو رأس شبيه بأسد. ففكه كان طويلًا ومُدببًا بما يماثل تنينا أسطوريًا.. نعم هو أقرب لتنين لأن من منخاريه هبت شعلتان ناريتان كنوع من التعبئة للـ.. للمعركة بينهما.

كان الضوء مُركزًا على الحلبة ولكنه يتحرك بصورة مستمرة دائرية حول قطرها.

انتبهت في تلك اللحظة إلى تألّق خافت لما يشبه الهالة أمامي. كان حاجزًا غير مرئيّ يمنع العراك من أن يصل إلينا.

ثُم الصراخ المستمر للجمهور الكثيف من حولي في انتظار إشارة البدء، ليلتحم الطرفان في معركة تبدو للوهلة الأولى أنها انتحارية – بالنسبة للرجل بالطبع.

سألت أقرب شخص لي:

-"ما هذا بالضبط؟!"

لم أر سوى شبح ملامحه بأطراف الضوء الأزرق الخافت، ولكن صوته قال في نشوة:

-"تمزح بالطبع؟!.. إنها حلبة (كُنْ الأسطورة) للمصارعة.. كيف ولجت هنا ولم تسمع عنها من قبل؟!"

قلتُ له وقد بدأت أفهم:

-"ولكن ماذا عن هذا المسكين؟ .. هل هو مُدرَّب؟! أهو نوع من الاستعراض؟!"

فأجاب نافيًا بشدة واللعاب يتطاير من فمه:

-"بالطبع لا!.. هذه مسابقة يتم الاشتراك فيها.."

-"والجائزة؟"

في تلك اللحظة بدأ العد التنازلي لبداية المعركة أو المذبحة على وشك البدء. بدأ العد من رقم خمسين الذي طار هولوجرامه في

سماء الحلبة بينما يُقضَم منه واحد مع كل ثانية تمر. بدأ الوحش العجيب يصدر سلسلة من الصرخات الرهيبة المزوجة بالزئير، وعيناه تبدآن بالاحمرار رويدًا رويدًا، أما المتباري فقد بدا واثقًا كما تسفر حركاته التحفزيّة.

أما هو فقال بعدما صرخ مع الآخرين الذين بدؤوا يعدّون:

-"لا يوجد جوائز هنا.. المشاركة والمشاهدة في حد ذاتها جائزة!"

أعتقد أنني سمعت بتلك المسابقة من قبل.

أفق.. إغراءات السايبر لا تنتهي وأنت على وشك التلاهي بإحداها!

نفضت رأسي وبدأت ترتيب أفكاري رغم الصخب، بينما قال جاري:

-"أمعك (سايبروفيون)؟"

أعطيته حبة دون تفكير، وقُلتُ:

-"أتعرف شخصًا يدعى (آلان)؟"

صمتُ تاركًا ارتعاشة السايبروفون تسري في جسده، ثُم بعد لحظات من النشوة الطاغية، قال مستفيقًا:

-"آلاف يدعون (آلان).. ما تعريفه؟"

أجبته، فرأيت عينيه تتسعان في ذلك الضوء الخافت، أما صوته فبدا مصدومًا:

-"(آلان) الذي تتحدث عنه..

وحرّك يده فتبعتها. كانت تشير إلى..

ذلك المتباري في الحلبة!

.. هو ذلك!"

* * *

"عشروووووووووووون!"

قال فجأة محاولًا مغالبة الصراخ المتصاعد:

-"ولكن ماذا تُريد منه؟!"

-"أمر شخصي.."

قلتها بينما لم أفق بعد من الدهشة ومن ذلك الحظ العجيب الذي يطاردني. فلأتمن أن يستطيع (آلان) هزيمة الوحش.. ثم بعد ذلك نتفاهم!

"صفر!"

عندها حدث التصادم، وبدأت المعركة.

سمعتُ دقات قلبي على صدري كأنما يحاول الخروج لمشاهدة ما يجري. أما الصراخ فقد هدأ مع متابعة الكل الصدام الحامي الوطيس.

انطلق (آلان) دائـرًا حول الوحش، محاولًا إيجاد ثغرة ليعتليه.

كأنما أحلامي هي التي تنطلق لتعتلي وتصارع.. لقد أصبح (آلان) في هذه اللحظة يساوي أحلامي كلها..

عليك به!.. هيا!.. افعلها!

كان قد اعتلى الوحش بالفعل، الذي بدا غاضبًا ينفث النيران هنا وهناك، وهو يدور حول نفسه محاولًا إسقاط مصارعه الذي بدأت

ذراعاه المنتفختان تحاولان تطويق عنق الوحش.

فعلها الوغد! طوّق عنق الوحش واستعد لإخراج خنجره من..

ولكن الوحش انتفض في شراسة رهيبة، فأسقطه أرضًا. حاول (آلان) النهوض مرّة أخرى ولكنه لم يمهله.. فقد انهال عليه الوحش رفسًا.. ثُم.. نفث في الجسد الملقى أرضًا نيران غضبه كلّها، وعيناه مشتعلتان كالجمر.

اشتعل جسد المتباري بالنيران كورقة، وأطلق صرخات مريعة بينما يتلوى على الرمال.. لقد انتهيت يا (آلان).. أعد المحاولة في وقت لاحق!

أصدرت الجماهير صياحًا محملًا بخيبة الأمل. بينما قال جاري باستمتاع لم تمنعه الخيبة:

-"كان قريبًا.."

أما أنا فكنتُ واجمًا. ما زال الحظ السيئ يطاردني بشراسة أعنف من ذلك الوحش الذي هدأ وبريق عينيه الأحمر يخبو في رضا.. أما (آلان)، فحمل اثنان من المساعدين جثته بعيدًا.

قال جاري:

-"لو كُنتُ أعرفه شخصيًّا!.. ولكن لا عليك.. لاقه غدًا إذن. "

فمططتُ شفتيّ وقلتُ:

-"ألديّ حل آخر؟!"

ثُم تأهبتُ للرحيل مُستفيقًا:

-"عليّ أن أذهب إلى مكتب الاستعلام لأعلم موقع ولوجه غدًا.."

بدأتُ أشقُ طريقي إلى الخارج عبر الزحام الشديد الخانق، بينما يصيح مُقدم العرض:

-"للأسف سقط مصارع آخر.. كان قريبًا من لقب الأسطورة.. ولكنه قدم عرضًا طيبًا على كل حال.. الآن موعدنا مع متسابق آخر.. وهو.."

-3-

في اليوم التالي، كُنتُ أتسلق التلة صاعدًا إلى حيث مكان لقائنا

السابق. كانت روحي ترف داخلي، وقلبي يختلج معها محاولًا النزول بها إلى مُستقر تكمن فيه راحتي الأبديّة.. ولكن من أين تأتي الراحة؟!

الآن لم يعد عالم الرغبات والمتع سوى مُجرد تنويع آخر على العالم الحقيقيّ بكل همومه. لدي هموم هنا وهموم هناك.. أيّ قلب بائس هذا الذي يحمل همومه معه حتى في أحلامه التي من المفترض أنها ورديّة؟!

شعرتُ كأنما روحي سقطت سهوًا مني في مكان لا أعلمه ومع إنسانة تعلّق كياني بها حتى دميت تلابيبه من شدة الفراق.

(ليانا) هل كُنتُ أتوهمك؟ هل كُنتِ مُجرد شبح يداعب خيالي وأحلامي طوال الوقت؟ ألهذا الحد كُنتُ محتاجًا إليك؛ لتروي أحلامي بسحر ابتسامتك؟ لتروي رغباتي بجمالك الآسر؟

"بماذا تحلُم؟"

طفحت مستنقعات وجداني بوجهها المُشرق مُحملًا بذكرى حديثنا.

مع سخونة خواطري، بدأت ذكرياتي المسجونة داخل صخور صدمتي تتحرر، وبدأتُ أعي ما حدث قبل ساعة من الآن..

-"بم يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟ عمّن تحب أن تستعلم؟"

-"عن (آلان).. رقم التعريف"177209AXT"..

....

-"سيدي.. لا يوجد من يُدعى (آلان) ويحمل رقم التعريف "177209AXT".. هناك _"

-"أي هراء هذا؟!.. لقد كُنتُ هنا أمس وأنت بنفسك أمليتني عنوانه ومكان ولوجه!.."

-"مع احترامي لك.. من الصعب جدًّا يا سيدي أن أتذكرك.. فكما ترى.. نحن نتعامل مع آلاف الأشخاص يوميًّا.. ولكنني أؤكد لك أن خادم المعلومات السايبريّ لا يخطئ.. ولم يسبق أن فعلها مُطلقًا من قبل.."

-"ماذا يعني هذا؟!.. آآتيك كل يوم لتخبرني بشخص مختلف يحمل نفس الهوية التي سألتك عنها من قبل!.. أيّة سخافة

هذه!"

-"أعلم غضبك وأعذره يا سيدي.. ولكن صدقني هذا ما يخبرني به الخادم السايبري.. وهو.. للتأكيد.. لا ولم يُخطئ.. فحسابات تسجيل السايبر غير قابلة للتزوير.. كما أن مبدأ تزويرها في حد ذاته غير مبرر.. لذا يمكنني أن أضيف بكل ثقة: ولن يخطئ أيضًا..

أنا آسف يا سيدي.. ليتني أستطيع إفادتك بشيء.. ولكنها..."

-"اذهبوا إلى الجحيم!"

رنَّت أصوات الذكريات الأخيرة بصدري، فتنهدتُ بعمق أدمع عينيّ، بينما أقف لأنظر إلى المدينة الصاخبة خلف الحافة.

انتهى كل شيء. لقد انتهت حياتي هنا في السايبر.. لن ألج هنا بعد اليوم.. إن همًّا واحدًا يكفيني.

كانت الصورة رقراقة مشوشة بفعل الدمع الرقيق الكاسي لعينيّ، صحتُ في المدينة من فوق التلّة:

"وداعًا يا مدينة الصخب والأضواء!.."

ثُم قلتُ بينما يتجسد لخيالي وجه (ليانا) على صفحة الضوء البنفسجي المُشع:

-"وداعًا يا (ليانا).."

خيّل لي أن وهج المدينة قد ازداد تألقًا كأنما تودعني، بينما وجه (ليانا) السابح في الوهج يبتسم قائلًا:

-"وداعًا.."

فردت ذراعي عن آخرها، ثُم نظرتُ حولي نظرة أخيرة، قبل أن أترك جسدي يهوي إلى الخلف من فوق الحافة.. تراجع بصري مع جسدي الهاوي إلى الخلف، فالتقط صورا فلاشيّة سريعة كأنما هي صور تذكاريّة..

التلّة.. النجوم.. المدينة.. الـ..

* * *

أغمضتُ عينيّ بقوّة، بينما أتثاءب مستيقظًا في ارتياح. وعندما فتحت.. كانت السماء أوّل ما استقبلته.. السماء البنفسجيّة لعالم أحببته سابقًا.. وأمقته حاليًا.

لم أصدق عينيّ لوهلة، ووددتُ لو كان ما أرى كابوسًا سخيفًا يعبث بعقلي.. ولكن .. لا..

فالسماء البنفسجيّة الخلابة المقيتة تطل عليّ مُحيطةً بعالمي كله، كما لو كانت تفهم ما يجول بخاطري وتتباهى بمدى انتشارها وسطوتها. وعندما اعتدلت، كان كل شيء كما هو.. الملهى من خلفي بكل ما يجول به من صارخين.. وأطياف الروائح المُسكرة.. والعُشب الخشن الزلق يداعب كفيّ المستند عليهما.

سحبتُ نفسًا عميقًا من الهواء الثقيل، فاحتقن وجهي بشدة بينما ما زلتُ متسمرًا على جلستي. وطوّق الإحساس بالسجن صدري، تمامًا كما فعل الجنون بعقلي.

هل أصبحتُ كيانًا ليليًا لا يحيا سوى في السايبر؟!

لماذا يضطهدني السايبر إلى هذا الحد؟! ما الذي اقترفته حتى يكون هذا هو مصيري؟! لقد فعلتُ كما يفعل الجميع.. استمعت.. وانغمستُ فيه تاركًا نفسي له.. ماذا بعد ذلك؟! اللعنة!

قمتُ صارخًا بكل قوتي في السماء:

-"ماذا تُريد منييييييي! ماذا تُرييييييييد! سلبتني حبيبتي والآن تسلبني حياتي!.. ماذا تُريد بحق الجحيم!"

بينما يتردد الصدى، التفت العشّاق إليّ للحظة، ثُم عادوا إلى ما كانوا يفعلون.

لا.. لا.. لا.. لن أصمت على هذه المهزلة. سأقاضي أولئك الأوغاد القائمين على السايبر.. سأذهب إلى مقرّهم في قلب المدينة.. سأذهب وأقلب العالم على رؤوسهم الحقيرة!.. سأحطمهم!.. أريد حياتي.. أريدها الآن..

هبت نسمة قويّة كأنما تؤازرني على ما أنتوي فعله.

كانت حياتي هادئة قبل السايبر.. كُنتُ أعمل في الـ لا أذكر!.. وليلًا أرتاح.. هكذا دونما مشاكل.. حتى بداية دخولي كان.. كان..

هذا غريب.. لا أذكر أيضًا!

كُنتُ بدأت بالفعل هبوط المنحدر لبلوغ المدينة، وكُنتُ في لجّة من خواطري المحمومة، والآن انتبهت..

لم يكن حـولي الـسايبر المـألوف، لقـد اختفـى فجـأة كـصورة هولوجرامية، ووجدتني أتحرك في فراغ وإلى فراغ. كان فراغًا أسود لا يؤوي سوى ضلال في ضلال، كأنما احتجب العالم كله؛ الحقيقيّ منـه والافتراضيّ خلف ستار سميك من السرمد الأسود. ثُم ذلك الصوت..

-"كان ماذا..؟"

قالها الصوت الغائب، فارتبكت أفكاري.

-"لقد سألتك.. كان ماذا؟ أجب!"

سألته باحثًا عـن مـصدر الـصوت، رغـم أن حواسـي كلـها قـد انطفأت فجأة، ففقدتُ الإحساس بالاتجاهات مع ذلك السواد الـشديد والصوت المحيطيّ:

-"أين أنا؟! و.. ومن أنت؟؟.. ماذا تعني؟"

أجاب الصوت بقوة، بينما ترتبك أعماقي أكثر:

-"كُنت تقول: (كانـت حيـاتي هادئـة قبـل الـسايبر.. كُنـتُ أعمل.. وليلًا أرتاح.. هكذا دونما مشاكل.. حتى بداية دخولي..)

ماذا تعني بالحياة الهادئة؟! أيمكنك أن توضح لي؟"

صرختُ به، وقد بدأ الرعب يستبد بي:

-"من أنت كي تسأل؟.. من أنت؟!!"

ولكنه تابع دون أن يرد:

-"أيّة حياة تلك؟! أتستطع أن تخبرني ماذا كُنت تعمل؟!.. ما اسمك في العالم الحقيقيّ؟.. ما علاقاتك؟ بل.."

في ارتباك وخوف لم أشعر بهما مطلقًا من قبل، دمعت عيناي أو هكذا شعرت. وصحتُ مقاطعًا:

-"من أنت؟!"

ولكنه تابع مرّة أخرى:

-"..ماذا تعرف عن العالم الحقيقيّ الذي تتشدق به؟!"

أخرستني عباراته، وأثارت داخلي إعصارا هائلا من الارتباك والمشاعر المتناقضة، أخيرًا حاولتُ أن أقول:

-"أنا.. أنا أعمل.. .أعمـ.."

-"أنت لا تعرف ماذا كُنت في العالم الحقيقي.."

حاولتُ تذكر أي شيء .. أي لمحة من حياتي في العالم الحقيقيّ.. ولكن كان عقلي مُكبلًا بقوة عجيبة. شعرت بارتجافة شفتيّ، واستدركتُ بصعوبة:

-"تقصد لا أذكر.."

قال بعد لحظة صمت:

-"نحن القائمون على السايبر.."

ومع آخر عبارته، أزيحت الغشاوة السوداء من على كياني، وفجأة أصبحتُ.. في مواجهته مباشرةً.

كان كهلًا أشيب الشعر، يرتدي زيًّا من قطعة واحدة له لون أزرق. وكُنتُ ممددًا على ما يشبه أريكة طبيّة أمامه. أما هو فكان واقفًا أمامي وهو يبتسم. ثُم قال بصوت طبيعيّ بعكس الصوت الضخم السابق:

-"ودعني أصحح لك استدراكك: أنت ((لا تعرف)) ماذا كُنتَ في العالم الحقيقيّ.. لأنك.. بكل بساطة.."

صمت لحظة، ثم أضاف بلهجة مغايرة:

-"لم تكن حقيقيًّا يومًا!"

ارتعد كياني كما لم يرتعد من قبل. لقد أخذتُ نصيبي من صاعقته كاملًا، أما هو فتركني أتخبط بين دوامات الدهشة مُحاولًا التشبث بخيط جأش. فقط جلس على الأريكة أمامي، محدقًا بصمت.

لم يطل صمته، فسرعان ما عاد يقول:

-"أنت برنامج لشخص يوجد في السايبر دون وجود فعليّ له في الواقع.. معادلات كُتبت على شريحة من شرائح ذاكرة السايبر الضخمة..

لقد صنعنا شخصك.. وحمّلنا برنامجك ببعض التفاصيل عن طبيعة حياتك الافتراضيّة وبالإضافة إلى قشور عن حياة البشر في العالم الحقيقيّ.. كي يكون هناك مبرر شخصي لوجودك في السايبر.."

بإرادة يائسة حاولتُ اعتصار مخي مُتذكرًا أيّ شيء.. أو حتى لمحة من العالم الواقعي. ولكن صادف ذاكرتي جدار شاهق طويل من السواد مُمتدًّا إلى آخر أطراف عقلي. أكاد أجزم أن السواد هذا ليس

نسيانًا، إنما هو جهل. الحقيقة أنني لا أعلم شيئًا عن العالم الواقعي سوى صورة عامة مبهمة التفاصيل.

رغم تفسيراته المذهلة والتي ربما لا يصدقها عاقل، إلّا أنني واثق من أن الرجل لا يكذب. الأغرب أنني لا أعلم من أين أتتني تلك الثقة العجيبة.

واصل حديثه مع انعقاد حاجبيه:

-"أعلم أن الحقيقة قد تكون صادمة.. ولكنك بالتأكيد تشعر أنني لا أكذب ولا مبرر لي في ذلك.. أنت تعلم في داخلك أن ما أقوله صحيح.."

أومأتُ برأسي تلقائيًّا، وقلتُ بعدما تحرر لساني بعض الشيء:

-"وماذا عن (ليانا).. أهي مثلي أيضًا؟! ما مصيرها؟.. و(آلان)؟.. وذلك الآخر الذي لم أعرف اسمه؟"

فابتسم ابتسامة مُشفق -أو أنها بدت كذلك-، وهو يقول:

-"(ليانا) و(آلان) وغيركم.. مثلكم مثل موظفي

الاستعلامات.. ومقدمي البرامج الترفيهية.. ونادلي المقاهي.. ومديري الملاهي.. كلكم مُجرد برامج لأشخاص افتراضية في السايبر.. ولكنكم تختلفون عنهم في إدراككم الواعي لذواتكم.. بينما هُم مُجرد برامج بدائية تؤدي دورها بنمطيَّة.. مُسيَّرة وليست مخيَّرة..

أما ما حدث من خلط الهويّة بين (ليانا) و(آلان).. فهو أمر مقصود منّا.. كنّا نختبركم كلّكم في آن واحد.. ونُعرِّضكم لأنواع مختلفة من الضغوط والانفعالات حتى نتأكد من جاهزيّتكم لما نريد.."

في نفسي، استقرت بعض السوائل المتوترة. رغم كل ما قاله، كانت معرفة أن حال (ليانا) مثلي بمثابة البَرد النازل على قلبي (الذي لا وجود له كما علمت الآن!).

ولكن..

سألته بينما أُعدل من رقدتي:

-"ولكن لماذا؟ لماذا كل هذه الاختبارات؟ ألا يعج السايبر

بمليارات الأشخاص الذين يأتونه ليلًا في نومهم كي يتحرروا من الكبت ويفجروا النزوات المحبوسة؟ ما الهدف من مشروعنا إذن؟!"

كان يتوقع السؤال بالطبع، لأنه أجاب بسرعة:

-"كانوا مليارات قديمًا.. عندما كان السايبر صيحة جديدة يلجأ إليها الناس بكل أحلامهم وشطحاتهم المسجونة.. أما الآن فقد بدؤوا يملون منه ومن ملذّاته رغم ابتكارنا الجديد فيها كل يوم.. وبالرغم من أن حبوب ولوج السايبر لها طبيعة إدمانية.. ولكن المصحات النفسية لم تهدأ إلّا بعد أن نجحت في علاج معظم حالات الإدمان تلك..

والآن أعداد المُقبلين في تناقص مستمر.. طبقًا لإحصائيتنا غير المعلنة.. انخفضت نسبة المستخدمين إلى ثمانين بالمئة من سنوات الذروة.. الرقم رغم أنه ما زال مرتفعًا وغير مقلق على المدى القريب.. إلّا أن الأمر تجاريًّا وعلى المدى البعيد.. غير مقبول على الإطلاق..

ولذلك وُجد مشروعكم"

لم أفهم.

-"ماذا تعني؟"

التمعت عيناه المحدقة فيّ، وقال:

-"يعني أننا نصنع الآن زبائن افتراضيين لعالمنا.. نحن نهدف إلى ازدحام السايبر بشخوص من أمثالكم.. برامج مصنعة بحرفية عالية لتجذب رواد السايبر بواقعيتها.. و لتؤكد رواجه.. لتؤكد للجميع بما فيهم الرواد الحقيقيون أن النسبة ارتفعت ولم تقل.. هذه الإيحاءات مقرونة بإحصائياتنا المعلنة مع بضعة حيل أخرى.. ستؤدي في النهاية إلى عودة العصر الذهبي للسايبر.. فالسايبر بالنسبة لنا تجارة رابحة علينا الحفاظ عليها بشتى الوسائل..

فهمتني؟"

ومال إلى الأمام بينما يقول الكلمة الأخيرة.

نحن.. مُجرد أشباح لأشخاص تمنيناها ولم تكُن أبدًا.. مُجرد أحلام لنفوس عشناها ولم تُوجد قط.

هدأت روحي (الزائفة) كثيرًا عن ذي قبل. الرجل يتحدث عن معركة ليست معركتي .. وحياة لم تكن حياتي.. وعالم لن أعيش فيه مهما فعلت. في الحقيقة لستُ حانقًا على شيء.. بل على العكس عليّ أن أشعر بالامتنان.. فلقد ساهم الرجل مع زملائه في إخراج كياني إلى الوجود.. أي نعم هو ليس حقيقيًّا بالنسبة لهم.. ولكنه حقيقيّ بالنسبة لي ولرواد السايبر على الأقل.

بدت لي أفكاري وعباراتي غريبة كأنما أتذوقها لأول مرّة، كما بدت لي حالة البرود التي كُنتُ عليها مدهشة، خاصة لشخص مثلي علم لتوّه أن كُل ما عاشه لا يعني شيئًا إلّا في عالم يهرب إليه البشر في نومهم متدثرين بشهواتهم وشطحاتهم. سألته بنفس البرود:

-"والآن ماذا عليّ أن أفعل؟.. ولماذا تخبرني بكل هذا؟"

قام واقفًا بهدوء، وهو يقول:

-"كان هذا نوعًا آخر من الاختبار.. والجزء الأخير من المرحلة الأولى التي تهدف إلى توثيق الصلة بالسايبر والتأكد من

بشرية تفاعلات البرنامج..

أما الآن.. سنشرع في المرحلة الثانية وهي زراعة ذاكرة أحداث لشخوصكم في العالم الحقيقيّ.. بحيث يتم رتق كل الثغرات التي تكشف لأحد.. وبالأخص لكم أنتم.. حقيقة ذاتكم.

كل هذا بالطبع بعد مسح ذاكرتكم التي خزنت كل ما أقصه عليكم الآن"

ثُم عقد ساعديه أمام صدره:

-"ها.. ألديك أيّة تساؤلات أخيرة؟"

إنها النهاية إذن. ارتفع نبض قلبي بعض الشيء، وجرى النمل في عروق قدميّ. رغم كل شيء، لقد استطاع أولئك القوم أن يغرسوا فينا حب الحياة.. ورهبة الموت. ولكنه على كل حال ليس موتًا أبديًّا.. فبعده بعث جديد وقريب.. ربما مع (ليانا).. لو كان هناك شيء حقيقي في حياتي الزائفة فهو حُبها.

ابتلعت ريقي بصعوبة، وسألته:

-"(ليانا).. سأراها مُجددًا؟"

لم يُجب سؤالي. قال مُبتسمًا بخبث، والعالم يعتم من حولي:

-"إلى اللقاء.. أبلغ تحياتي لكل فاتنات السايبر.."

كانت ابتسامته آخر ما رأيت قبل الظلام كامل.

* * *

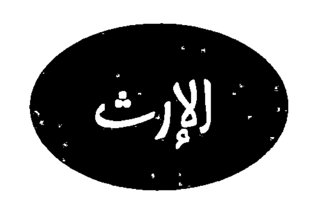
دوختنا الرائحة.. هدَّنا الصخب.. أغشتنا الأضواء.

كانت جواري، تقول وكلانا يتطلع إلى السماء البنفسجيّة:

-"بماذا تحلم؟!"

أدرتُ رأسي نحوها مُبتسمًا، ففعلت مثلي مبادلةً بالابتسام.

-"أحلم بكِ"


الإرث

كما يبدو عادةً، كان الأثير رتيبًا .. مُملًّا .. كالحياة بكل ما فيها من أنظمة رتيبة مُتجمدة. بيد أنه -الأثير- لم يكن أيضًا على الدوام رتيبًا. فمن حين لآخر تنشأ به بعض الدوامات.. بعضها صغير ينشأ عنه تغّير ضئيل بالكاد يُلاحظ ولكنه يُدرك. والبعض الآخر يكون عظيمًا كإعصار هائل، ولكنه لحسن الحظ كان نادر الحدوث. وإذا حدث فهو يؤدي إلى إعادة صياغة كاملة للوجود العقليّ للكائنات المتواجدة به. كان ذلك الأثير العقلي يمثل الطبيعة بكل مللها وبكل متقلباتها.

ولكن ذلك الأمر لم يكن يشغل أيًّا من الجالسين. فلقد اعتادوا على تلك الأمور، بل ويستطيعون التكيّف معها بشكلٍ أو بآخر.

كانوا ثلاثة جالسين بجوار بعضهم البعض. يحيط بهم الأثير بكيانه الضبابيّ الأشبه بدخان خفيف. رغم أن الأثير لا يعترف بالوجود المكاني بصورته الماديّة الطبيعيّة إلّا أن كلا منهم يمكنه

إدراك بسهولة أنه جالس، وأن أخاه بجواره. فالوجود العقلي يتجسد في صيغة هي أقرب للهالات رغم أنها ليست كذلك بالضبط. على أن عقولهم المُدربة على التعامل مع ذلك العالم قد وصلت بتلك المقدرة إلى أعلى حد، مما يجعل إدراكهم لبعضهم البعض في الأثير أقوى من الرؤية البصرية في كثيرٍ من الأحيان.

كان الوقت في العالم الماديّ هو الصباح الباكر، بينما الوقت في الأثير لا يمكن تحديده بدقة لمبتدئ، ولكنهم قد توصلوا إلى طريقة بها الكثير من الحدس لتحديد الوقت في ذلك المكان الضبابي.. لذا يمكن القول إن الوقت في الأثير كان الظهيرة تقريبًا.

أما هم، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر الحكاية التي وصفها جدهم أمس بهدوئه المهيب المعروف:

-"إنها أهم حكاية في تاريخنا كله".

كانوا ثلاثة صبية تقع أعمارهم ما بين عشرة إلى سبعة عشر عامًا بالمقاييس الأرضيّة. ورغم الحكمة التي اكتسبوها مبكرًا كعادة ذلك الشعب، إلّا أنها لم تثبط شيئًا من حماسهم لمعرفة القصة، بل

على العكس زادتهم حماسًا فوق حماس. فهم يعرفون أن إثارة اهتمام جدهم -قائد ذلك الشعب- ليست بالأمر الهيّن. وكانوا قد سمعوا من قبل بعضًا من تلك الحكاية المدهشة، ولكنهم آثروا ألّا يعرفوها كاملةً إلّا منه؛ لمعرفتهم بمدى قوّة ذاكرته وإلمام عقله المُدهش بمعظم -إن لم يكن كُل- تفاصيل الأحداث التي عاصرها في ذلك الزمن البعيد؛ فقد كان الأكبر سنًّا بين أفراد ذلك الشعب.

لم يطُل انتظارهم، فسرعان ما تمخض القوام الضبابيّ للأثير عن شبح شخص ما، سرعان ما تشكلت ملامح ذلك الشبح واتضحت، فكان جدهم، وقد ظهر أمامهم مباشرةً قائلًا:

-"كيف حالكم اليوم؟"

أظهرت مشاعرهم الاحترام وهم يقفون تهيبًا، وردوا جميعًا:

-"نحمد الرب الأعظم.. نحن في خير حال أيها الجد الكبير".

ابتسم بتلطف وبساطة قائلًا لأصغرهم:

-"و كيف حال التمرينات الروحيّة يا (إيرا)؟"

قال له (إيرا):

-"تسير على ما يُرام يا جدي.. ما زلت أواجه بعض الصعوبة في الاستغراق الكُليّ في الأثير.. ولكنني سأثابر حتى أتقن الأمر كما تعلمنا".

صمت الجد لحظة، ثُم قال على الفور:

-"إذن فلنبدأ.."

جلس، ثُم بدأ:

* * *

كُنتُ وقتها شابًّا يافعًا. وكُنتُ بحق على خير ما يُرام. لا يمكنك إدراك الفرق الحقيقيّ بين الشباب والشيخوخة إلّا بعدما ترى بعينيك المصوصة جلدك الذي رقّ وتجعّد كجلد حيوان (كال).

كُنتُ واقفًا وجهًا لوجه أمام البحر الكبير، أناجي ذكريات وأفكار شتى، كأنما أحاول استخراجها من أعمق أعماقه.

حينئذ وجدت نفسي ترق، ومشاعري تتحرّك، ولم أشعر بجسدي إلّا وأنا أفعل فعلًا بدا لي في منتهى الغرابة وقتئذ. إذ دُرت حول نفسي ببطء، بينما أتطلّع في كل الموجودات حولي بإمعان

وبصفاء ذهنيّ ربما لم أمر به قط قبل ذلك .. أو حتى بعده.

بدت دورتي وكأنها نظرة شاملة لعالمنا، نظرة محيطية لم أدر كيف لعقلي الشاب وقتها أن تخطر بباله. وفي دورتي رأيت الكثير مما لم أكن قد رأيته من قبل. شعرت أنني أقرأ الوجود بكل مخبوءاته.

في تلك النظرة الدورانية الغريبة؛ رأيت أرضنا الشاسعة المُمتدة إلى أفق بعيد، وصوامعنا المرصوصة بجوار بعضها البعض كبيض (بلورياش) الأسطوريّ الكبير. يطل من فوق المشهد النسيج السماوي الأخضر مُمتدًّا خلف الأفق، كاسيًا الفضاء الرحب، بينما في منتصفه تتربع شمسنا الفيروزيّة مُرسلةً أشعتها كخيوط تُحرك أبسطة السعادة في الدنيا.

ولوهلة ظنّ عقلي أنني أرى عالمنا لأوّل مرّة، تلك الصدمة التي حاكها عقلي لي جعلتني أتساءل: من نحن حقًّا؟!

بالطبع كُنتُ أعلم أننا لسنا وحيدين في الكون، فلقد سبق واتصلت بنا حضارات شتى بطريقتنا العقلية المعروفة. ولكنني شرعتُ أتساءل: هل هناك مكان لا تنطبق عليه قواعد دنيانا؟! تلك

القواعد التي اكتشفناها وألفناها حتى مللنا منها؟! وإذا وُجد ذلك المكان.. تُرى أين هو إذن؟!

حمستني نفسي على إكمال ما بدأت من خواطر، بدت لي في تلك اللحظة قريبة جدًّا من الواقع، تكاد تصيب الحقيقة في قلبها. ولكن لسبب ما تجمّد عقلي عند تلك النقطة، ولم أستطع إتمام الفكرة التي بنيتها مهما بذلت من جهد.

فتحت جفنيّ المغلقين، وعُدتُ أنظر للبحر الأخضر باحثًا في أعماقه عن تتمة الفكرة التي فقدتها ففقدتني.

ولكن وقفتي لم تطل أكثر من ذلك. ففجأة استقبل عقلي عبر الأثير رسالة شديدة القوّة. كانت من والدي الذي كُنتُ قد تركته في صومعته يؤدي الصلاة في ذلك الصباح الباكر.

كان فحوى الرسالة شديد الاختصار، ولكنه مُقلق بحق: تعال فورًا إلى الساحة الرئيسيّة.

لم يكن مبعث القلق هو المحتوى الخبريّ للرسالة، ولكنه المحتوى العقليّ الذي يخلفها كصدى الصوت مُحملًا بالمشاعر التي

بُعثت منها.

هرعتُ على الفور عبر الصوامع المتَراصة قاصدًا الساحة، وعقلي يحمل تساؤلات لا تنتهي..

لماذا لم يخبرني والدي بما حدث عبر الأثير العقلي؟ هل الأمر يحتاج الرؤية البصريّة إلى ذلك الحد؟ أم أنه الانفعال الذي جعله ينسى مخابرتي بالأمر عقليًّا؟ ثُم أيّ أمر هذا الذي ينفعل له والدي إلى ذلك الحد؟!

فكرتُ في الكثير من الاحتمالات بينما أقطع المسافة المتبقيّة إلى الساحة الرئيسية، ووجدتُ كُل الأسباب تشير إلى اتجاه واحد: كارثة.

عندما أدركتُ ذلك كُنت قد وصلتُ إلى الساحة. وهناك وجدتُ ما لا يُنسى مهما مرّ بالمرء من عُمر، ومهما طوى النسيان من الذاكرة. حتى بالنسبة للحكمة التي اشتهرنا بها بين شعوب الكون، كان الأمر بكل بساطة: لا يُصدق.

فعلى الرغم من الزحام الشديد والذي ربما يحدث لمرة أخرى

نادرة في تاريخنا الطويل، كانت البوابة واضحة تمامًا.. فقد كانت ضخمة بما يكفي لتكون كذلك.

كانت بوابة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ. كأنما كانت ثُقبًا في نسيج عالمنا يطل به إلى عالم آخر تمامًا؛ عالم مجهول أبدًا.

بينما أتذكر بدهشة بالغة خواطري السابقة التي بدت كنبوءة اخترقت جدران الحاضر إلى المستقبل، اخترقتُ الصفوف الذاهلة إلى المُقدمة، حيثُ والدي الذي وقف هو الآخر مأخوذًا بالمشهد.

عبر ذلك الثُّقب أو تلك البوابة، كانت تقف كائنات عجيبة، أدركنا منذ اللحظة الأولى أنها عاقلة. في البداية، كانت تلك الكائنات واقفة فيما بدا بالترقب والحذر مُرتدين أزياء لامعة شبه شفافة، فبدوا كانعكاس لنا ولكن بجو مختلف. ثُم لم يلبثوا أن تقدموا، ، يتقدمهم رجلٌ واحد يرتدي نفس الرداء. وبدا واضحًا أنه قائدهم.

بينما كلنا ننظر إليهم وهُم يتقدمون مُقتربين من عبور البوابة، اتصل وجداننا عبر الأثير العقليّ للحظات قصار، وتوحدنا في شعور مُفرد لشخص مُفرد بلا ونيس.

انكسر جمود المشهد مع عبور أوّل تلك الكائنات إلينا. وكان والدي كالعادة هو السبّاق إلى القيادة. فقال مُخاطبًا عقل الكائن القائد: "أيّ قوم أنتم؟"

تقدم القائد إلينا، بينما يبدأ عبور الكائنات الأخرى من خلفه، فأفسحنا لهم الطريق بنفس المشاعر الحذرة.

ومع تقدمهم، بدأت تتضح ملامح أولئك القوم. كانوا شديدي الشبه بنا، باستثناء بعض الاختلافات الطفيفة، كعدم وجود شعر في الوجه أو الرأس تمامًا، والأنف الدقيقة نوعًا، ولون البشرة الفاتح للغاية، وغيرها من تلك الاختلافات الشكلية التي لا تشكل فارقًا حقيقيًّا. ساعد شكلهم الشبيه بشكلنا على تهدئة مشاعرنا، بل إن بعضنا شعر بنوع من الألفة معهم.

قال قائدهم بصوته العقليّ الذي دوّى في عقولنا: "نحن..

ومع آخر كلمته، انطلقت في عقولنا جميعًا أحزمة طويلة من الذكريات.

* * *

كُنا قديمًا نُدعى البشر.. نسبةً إلى الشعب الأصل الذي ولدت منه حضارتنا.

نحن شعبٌ له تاريخ طويل في الحضارة.. وصلنا ذات يوم إلى قمة هرمنا الحضاري داخل كوكبنا .. قضينا على المرض .. أطلنا الأعمار .. حسنّا النسل .. عالجنا بيئتنا بعد قرون من الترهّل الذي سببه تقدمنا.. ثُم طورناها..

لقد فعلنا كل شيء داخل نطاق عالمنا.. جنينا ثمار الحضارة والتقدم كاملةً غير منقوصة.. عندئذ توجهنا للانتشار الخارجيّ..

كان لا بد من ذلك .. لسبب ربما يكمن في طبيعتنا.. في تكويننا الحيوي. كانت الحضارة لدينا تعني الانتشار.. والمزيد من الانتشار.

في بداية نمونا الحضاري كُنا مقسمين إلى دول ودويلات مختلفة متصارعة.. كُنا ننتشر داخل بعضنا البعض .. فعلنا ذلك بطريقة شديدة البدائية.. عبر القتل والعنف والحروب.. والتي كادت تودي بوجودنا كلّه.. ثُم بعد قرون من المحاولات والاستنزافات.. بدأنا نعقل الأمر .. وبدأنا نفهم معنى أن تتحضر..

تحضرك يعني انتشارك.. أن تصل بفكرك إلى أكبر عدد ممكن من الكائنات العاقلة.. أن تتجاذب معهم أطراف النقاش.. حتى تصل إلى المزيج المثالي.. ليس بالسلاح.. ولكن بالهدوء والرويّة.. بالإقناع والاقتناع.. بالعرض والطلب..

فهمنا أننا كي نتقدم أكثر في سلمنا الحضاري، لا بد أن نُعلّم ونتعلّم.. لا أن نَقتل ونُقتل.

وفعلنا كما كان يجب أن نفعل منذ أمد بعيد.. علمنا وتعلمنا.. اكتشفنا حقيقة أنفسنا في حقائق الكون وكائناته.. حتى بلغنا القمة المُطلقة في كوننا المعلوم.

هنا بدأنا نبحث عن وسائل جديدة لاكتشاف عوالم جديدة.. عُدنا إلى التاريخ لنبحث فيه حتى وجدنا ضالتنا.. كان حُلمًا نسيناه في أوج زهونا بحضارتنا التي كانت محليّة ثُم صارت كونيّة.. لقد كان حُلم اختراق أبعاد الكون المختلفة.

وبعد سنوات قصار تحقق حُلمنا القديم.. فاتحاً أمامنا بوابات لم نكن نعلم عنها شيئًا.. مُفسحًا الطريق أمامنا لبلوغ عوالم بعيدة كُل

البعد عن المألوف في كوننا.. بكُل ما به من غرائب ومُعجزات.. صارت كل محاولة انتشار جديدة لنا تمثّل نوعًا ممتعًا من المُغامرة..

حتى الآن اخترقنا ستة أبعاد جديدة.. وبدأنا عمليات اكتشاف العوالم المخبوءة داخل تلك الأبعاد.

أنتم البُعد السادس في قائمتنا.. وأوّل عالم نكتشفه في ذلك البُعد.

* * *

أفقنا من بحر الذكريات الطويل، ولوهلة شعرنا بأننا كُنا سُجناء ذكريات أولئك البشر لفترة سحيقة.

لقد وصف لنا مندوبهم باختصار حياة حضارة. بدايةً من المُراهقة المُزعجة حتى مرحلة النضوج والرُشد.. أو هي حضارة حياة.. وأيّة حياة؟!

بعد فترة من الصمت كان لا بد منها لتحرر عقولنا من صدمة ذكرياتهم، وتأثير الأثير العقليّ، حدّق فيه والدي، مُحاولًا استشفاف ما يُريد، قائلًا في عقله:

-"أرى أنكم شعب مكافح .. تستحقون حقًّا ما وصلتم إليه.. ولكن.. ماذا عنّا نحن؟ باختصار ما المطلوب منّا بالضبط؟!"

صمت الرجل، وبدا عليه الارتباك للحظة ثُم عدم الفهم للحظة أخرى، ثُم قال بعقله مُبتسمًا:

-"سؤالك في الحقيقة مُربك ولكنه منطقيّ..

نحن لا نُريد منكم شيئًا خاصًّا .. فقط نُريد منكم أن تفتحوا أبوابكم لنا.. وتسمحوا لنا بمخالطتكم.. كما أننا بدورنا سنسمح لكم بمخالطتنا .. هو تبادل حضاريّ .. ليس تبادلًا مباشرًا كالمقايضة .. فقط نُطلب منكم أن تتصرفوا على سجيتكم معنا.. اسمحوا لنا أن نصير منكم واسمحوا لأنفسكم أن تصيروا منّا..

نحن نعمل من أجل تكوين شعب واحد في كل العوالم.. حيثُ تختفي الضغينة وتذوب الأحقاد.. حيثُ نكتشف بعضنا البعض.. ونعالج نقائص بعضنا البعض.. حيثُ يجمعنا وجدان واحد لنبلغ بأنفسنا أعلى مرتبة..

هل تفهمني؟"

ما كان من والدي إلّا أن صمت. فمعظمنا توقع شيئًا من هدف أولئك القوم منذ اطلاعنا على ذكرياتهم. وقد كان صمته من صمتنا. فالقرار ليس هينًا أبدًا. لم يكن يتعلّق الأمر باحتمال كونهم مُخادعين أو أنهم آتون لاحتلالنا؛ فذكرياتهم العقليّة كانت صافية وصادقة إلى أقصى حد. ولكنه أمر يتعلق بمصير شعب كامل. لذا قال له والدي ببطء:

-"أفهمك جيدًا .."

عاد قائدهم يقول:

-"إذا وافقتم.. فسيتم إنشاء جزيرة خاصة يتم فيها معادلة التردد بين بعدكم وبعدنا بحيثُ يتم الاتصال هناك.. ومن تلك الجزيرة ستتم جميع مظاهر الحراك الاجتماعي والثقافي بين أهل البُعدين.."

قال أبي:

-"ولكن علينا دراسة الأمر والتشاور مع بعضنا البعض.."

-"كم من الوقت؟"

ألقى والدي نظرة خاطفة على الجمع من خلفه:

-"يوم واحد بتوقيت عالمنا"

بدا على الرجل الكثير من الدهشة، ربما لأنه توقع موافقة سريعة، أو ربما لطريقة أبي الحذرة المتحفظة، أو حتى لقصر المُهلة نسبيًّا التي حددها لهم، ولكن ذلك لم يكن ليمنعه من الموافقة على كلمتنا.

* * *

كعادتنا الدائمة في الشؤون الهامة، احتشدنا كلُنا في الأثير العقلي، الذي بدت ساحته الضبابيّة شاسعة للغاية في تلك الليلة. أما الأثير نفسه، فقد بدا متوترًا كما لم يكن من قبل، يتحرك ضبابه بسرعة مُستمدًّا حركته وتوتره من توترنا.

عندما اكتمل الحشد، قال والدي على الفور:

-"إذن ما رأيكم في الأمر؟.. عليكم أن تستوعبوا الأمر جيّدًا.. فالأمر لن يقتصر على مُجرد اختلاط. بل هو تعايش كامل.. سيؤدي في المستقبل البعيد إلى أن نصبح منهم بالفعل كما قال.. ستكتسب

أجيالنا صفاتهم المُختلطة بصفاتنا.. وربما سيكتسبون ملامحهم جنبًا إلى جنب مع ملامحنا.. إنه باختصار اندماج"

صمت للحظة، ثم أضاف:

-"إذن.. هل ننضم إلى ذلك الموكب الضخم في طريقه الخاص إلى الخلود؟! أم نستمر في بحثنا عن ذاتنا المختلفة وطريقنا الخاص؟!"

توافدت الآراء في العقول، واحدًا يلي الآخر، ينقلها الأثير بسرعته الفائقة، حتى آخر صوت. وفي نهاية الجلسة، قال أبي خاتماً:

-"إذن على بركة الرب العظيم"

وفي الصباح، ذهبت مع والدي بصحبة لفيف من أكبر حكمائنا وقتئذ إليهم، فاستقبلونا في خيمتهم العجيبة بنفس الروح السمحة التي تميزوا بها من تعاملنا القصير معهم، ومن موجاتهم العقلية التي استشعرنا استقرارها وصفاءها.

قال لهم أبي:

-"سنبلغكم الآن بقرارنا الذي اتخذناه.."

صمت الرجل تاركاً له مساحته الكافية للتخاطر:

-"لقد قررنا رفض عرضكم الحضاري بكل مميزاته وما يحمل من عيوب.."

همّ الرجل بقول شيء، إلّا أن أبى أصرّ على إكمال ما بدأ:

-"لاحظ أنني قُلتُ عرضكم.. لأنه بالفعل كذلك.. هو عرضكم أنتم وحُلمكم أنتم.. ولكنه ليس حلمنا نحن.. وربما لن يكون أبدًا"

قال له الرجل بهدوئه المعهود -رغم المفاجأة التي تبدت في خلجاته:

-"ولكنه ليس حلمنا وحدنا.. إنه حلم كل كائن عاقل.. أن يبادل معارفه مع الآخر ويزيدها.. حتى يطوّر من نفسه"

فرد أبي:

-"هذا صحيح إذا ما تم وفقًا لقواعد معينة.. وقد سبق واتصلت بنا حضارات كونية عديدة متبادلين معنا العلوم والأفكار..

أما ما تتحدث أنت بشأنه فهو شيء مختلف تمام الاختلاف.. إنه تمازج.. معايشة كاملة.. ذلك التمازج سيتخطى تبادل المعارف إلى تغيير شامل في هويّة شعبنا..

حلمكم رغم سموّه وعظمته إلّا أنه يضرب الهويّة في مقتل.. معنى حلمكم أن تنتهي خصائص وعادات الشعوب كلها لتصير نسخًا منسوخةً من بعضه البعض.. وتصبح خليطاً عجيبًا غير محدود من أفكار ومعتقدات ولغات وحتى طموحات مضطربة متناقضة.. حلمكم رغم سمو غايته واحترامنا الشديد له.. إلّا أنه لا يناسب شعبًا محافظًا كشعبنا.. شعب يُريد الحفاظ على قوامه الحضاري بكل ما أوتي من قوّة.. إننا من تلك الشعوب التي تُقدس القومية وتعتبرها جزءًا لا يتجزأ من كيان المرء.."

-"ولكن ألا ترون أن انتماء الشعوب لنفسها ليس أهم من انتمائها للكيان العملاق المسمى بـ"كائنات عاقلة"؟"

كان رد أبي أبي جاهزًا، فقد أشار بيده:

-"تقصد أن تدفع الشعوب هويتها ثمنًا للحلم الأكبر؟ ولكن ما

الذي سوف يميِّز كل شعب عن الشعوب الأخرى إذن؟.. ربما تجدون الأمر منطقيًّا ولكن الأمر مختلف معنا.. فكما قلت لك: هويتنا هي حياتنا باختصار.. كما أن خبراتنا تقول إن انتماء المرء إلى حُلم أكبر من عقله ليس بالشيء السليم.. قد يفقده ذاته.. ويجعله شخصًا مغيبًا.. يفعل أشياء فقط لأنه اعتاد عليها ولأنه تربى على أن يعتقد أنها فقط ما يُريد.. وليس لأنه حقًّا يُريد ذلك.. بينما قد يكون انتماؤنا إلى مكان أو عالم له معالم وحدود واضحة أمرًا إيجابيًّا يجعل من كل شخص مُدركًا لأبعاد وعيه.."

عبر الرداء الشفاف الذي يحيط بجسده كله، بدا على وجه القائد التفكُر، بينما أتم أبي:

-"أرجو أن تتقبلوا وجهة نظرنا.."

تراجع الرجل إلى الخلف، وملامح تتراخى:

-"بالتأكيد.. هذا حقٌّ مشروع لكل شعب أن يختار ما يراه الأفضل له.."

ابتسم والدي:

-"بالضبط.. ولكن هذا لا يمنع أننا سنسمح لكم بالعبور إلى الكواكب المأهولة الأخرى في بُعدنا.. فهذا ليس من شأننا.. كما أنه ليس بأيدينا على كلٍ حال!"

ابتسم الرجل هو الآخر. ثُم نهض من جلسته آمرًا رجاله بفض الخيمة استعدادًا للرحيل، ثُم قال:

-"نشكركم على استقبالكم لنا.. سنقوم بنقل بوابتنا إلى كوكب آخر بعد قليل.. وفي النهاية لا بد أن أقُول: نأسف لإزعاجكم"

نهض والدي مع الحكماء بدوره:

-"وأنا أيضًا عليّ أن أشكركم على تفهمكم المُتحضر لنظرتنا التي قد تبدو غريبة بالنسبة إليكم.. كما أتمنى لكم التوفيق في حلمكم الأكبر"

بدا وجه الرجل متفهمًا:

-"لا عليك .. فقد تعودنا على تقبل الرأي الآخر.. على كل حال أتمنى لكم أيضًا التوفيق"

ولم تكد تمر ساعة حتى كنّا نقف نودعهم، بينما يعبرون البوابة التي جلبتهم عبر الأبعاد إلينا.

ورغم إجماعنا الكامل على رفض ذلك الاندماج الحضاريّ، إلّا أنني أعترف بأنني تساءلتُ في نفسي، بينما تلتئم شفتا البوابة كالجُرح: هل نحن على حق؟

وكان هذا التساؤل بمثابة جُرح صغير في قلبي يأبى أن يلتئم.

* * *

أعاد الجد نظره إلى أحفاده مُستفيقًا. للحظات شعر بأن المسافة الزمنية بينه وبين تلك الأيام البعيدة قد انطوت إلى لحظات مُجردة، ذاب فيها الزمن على خلفية الأثير الضبابيّ.

أكمل الجد ناظرًا في العيون الصغيرة البرّاقة أمامه:

-"على أن هذا التساؤل لم يكن يدور في عقلي وحدي.. لقد كان في عقولنا جميعًا كما استشعرنا من الأثير.. حتى إن معظمنا ظلّ أيامًا على وجومه.. ولم يدخل الكثيرون إلى الأثير لأيام.. فرغم حكمتنا المتوارثة على مدى الأجيال إلّا أن هيبة اللقاء الحضاري كانت أقوى

من حكمتنا كلها مجتمعة.. كما أن حلم أولئك القوم كان خلّابًا مذهلًا إلى أقصى حد.."

وابتسم كحالم قائلًا:

-"ولا أخفي عليكم سرًّا أنني ما زلت حتى الآن أتساءل .. هل كُنا على حق بالفعل؟ هل كان لا بد من رفض ذلك التبادل الحضاري.. حتى نشق طريقنا بأنفسنا دون حاجة لمساعدة؟..

يبدو أن السؤال ذلك سيكون إرثكم وإرث الأجيال القادمة.. سيكون عليكم عبء معرفة الإجابة!"

صمت الجد متأثرًا بكلمته، وتمنى لأحفاده من كل قلبه أن يدركوا الإجابة يومًا.

أما الصغار الثلاثة، فقد كان وقع الحكاية عليهم واضحًا. كان للموقف هيبة عجيبة شعرت بثقلها عقولهم الصغيرة على الفور.. لذا لم يستطع أحدهم النطق بحرف عقليّ واحد لفترة، بينما يفكر كُل منهم في ذلك اللقاء الأسطوريّ.. وفي المستقبل: مستقبلهم، ومستقبل الأجيال القادمة.

دارت تساؤلاتهم مع أحلامهم في ضباب الأثير، فبدت كأشباح مستقبليّة، تنادي عقولهم، وتعدهم بأحداث وأشياء، تعجز حكمتهم اليافعة على تنبئها.


حلم كمال

-1-

كالحُلم بدأ الغروب. ذاب لون النهار الأزرق في أطراف الليل السوداء المُقبلة.. وصار خليط الألوان هو الملتقى.

أحمر - أصفر - ورديّ.

من خلف زجاج مكتبها، تابعت المشهد في استمتاع كتمه التفكير، وقالت عائدة ببصرها إلى محدثها:

-"ما زلت لا أدري سر رفضك لـ(كمال) بتلك الصورة الغريبة.."

كانت عيناها تحدقان به، كما لو كانت تحاول رؤية أفكاره بداخل رأسه. وكأن رأسه مجرد كرة زجاجية شفافة..

زجاج. نظرت بتلقائية إلى الكوب الزجاجي الفارغ على سطح مكتبها، وتركته يقول:

-"كنت أظن أننا انتهينا من هذا!.. لقد سمعت رأيي بوضوح في اجتماع مجلس الإدارة.."

صمت لحظة يتطلع إليها، ولوهلة شعر أنها لا تستمع إليه. كاد يُكمل، عندما قالت:

-"لا يا دكتور (أسامة).. لقد علمت السبب الظاهريّ أنه مُجرد إهدار لأموال المؤسسة.. نعم..

أريد رأيك الحقيقيّ.. فالاجتماع انتهى.. وفزتُ أنا.. وحصل مشروعي على موافقة وزارة الداخليّة.. ولكنني أريد معرفة السر الحقيقي لاعتراضك الدائم على المشروع.."

كبحت أفكارها بالاستماع إلى صمت المكان، منتظرةً رده الذي لم يتأخر. تنهيدة عميقة سبقت قوله:

-"أولًا.. لا بد أن تتذكري أنك فزتِ باستمرار المشروع بفارق صوتين اثنين.. ثانيًا.. الأمر كلّه -بصراحة- لا يريحني على الإطلاق -كما لا يريح الكثيرين من أعضاء مجلس الإدارة..

أحبت محاولاته لتبرير الهزيمة، الأمر الذي أضاف إلى

سعادتها بانتصارها.

وثانيًا.. الحقيقة أنني كلما أرى وجه هذا الروبوت.. أرى أمامي عشرات الاحتمالات الواردة الحدوث.. ماذا يعني أن نطلقه في شوارعنا لكي يتفاعل مع الناس بكل حرية؟!.. كيف؟!.. لقد ورث هذا الروبوت خبرات بشرية عديدة.. كما لديه من الذكاء الصناعي ما يماثل بشريًا ناضجا!.. كيف أئتمن روبوتا طليقا بمثل تلك القدرات على حياة الناس؟!.. ستقولين إن الاحتمالات كلها تمت دراستها بعناية وأن برنامجه له قواعده.. ولكن ماذا عن الظروف العشوائية التي من الممكن أن تخلق لعقله الفوتونيّ حلولًا بديلة للالتفاف حول المشكلة؟!.. أوليست كل تلك العقبات واردة؟!"

بعض الصحة في كلامك يا حبيـ.. أقصد يا عزيزي..

تسللت بعض الحمرة إلى وجهها، بينما تجيبه مُبتسمة:

-"سنزوده بأحدث أجهزة التتبع والمُراقبة.. كما أننا سنضعه في مجتمع صغير لن يستطيع مغادرته أبدًا.."

أطلق ضحكة ساخرة متقطعة، وقال في نفسه: أتظنين الأمور

تسير بتلك البساطة؟!

أنهى خاطرته مع ضحكته، ومال إلى الأمام قائلًا:

-"الغريب يا دكتورة (ناهد).. رغم صدامك المستمر معي بسبب مشروع الروبوت البشريّ هذا.. ورغم تحمسك الشديد لإنتاجه الأوّل المدعو (كمال).. إلّا إنني أرى أنك تهينين ذكاء رجلك الآلي كثيرًا.."

كانت تعلم الإجابة. ولكنها قالت بتلقائية:

-"ماذا تقصد؟!"

ابتسم لسؤالها، وقال فورًا:

-"مع البشر لا يوجد شيء مستحيل.. تذكري هذا جيدًا.. وهذا الروبوت يتمتع بذكاء البشر .. لذا لا تستهيني بذكائه أبدًا.."

هكذا إذن!

قالت لنفسها ذلك، ثُم هزت رأسها برفق قائلةً:

-"نحن نستعد جيدًا لتلك النقطة بالذات.. فالقواعد الأساسية

الخاصة بحدوده كروبوت محفوظة في منطقة سرية معزولة ضد أي اختراق.. حتى لو كان الاختراق منه شخصيًّا!.. بمعنى أنه لن يفهم أبدًا ما يدور بداخله!.."

-"يبدو أنكم تصرون على التعامل مع رجلكم بالمنطق العلمي البحت.. حـ..

بحاجبين مندهشين وبهدوء قاطعته:

-"كيف لا نعتمد على المنطق العلمي في شيء صُنع بالعلم!.. أرى أن منطقك متضارب جدًّا في تلك النقطة!.."

رغم شهرته البالغة في وسائل الإقناع -كرئيس قسم التنمية البشريّة في هيئة البحث العلمي- إلّا أنه وجد أن الأمر لا يستحق العناء أكثر من ذلك. لقد هزمته مرتين.. هزمه خيالها في الاعتماد على أبحاث الروبوت وتكريس المزيد من الأموال له ثُم الآن تهزمه منطقيتها.

كرجل علمي ومنطقي كان الصمت هو ملاذه الوحيد من تحفزها.

الأدهى أن ما يريد قوله بخصوص الأمر بدا بالغ الصعوبة بمنطق الوصف.. وإذا أراد أن ينطقه سيقول شيئًا قريبًا من "الحدس".

على أنه وقف من مجلسه، وتحرّك إلى الزجاج العريض بمساحة الجدار الخلفي لمكتبها، متطلعًا إلى طرف الشمس الخافت في نهاية الكون.. كأنما قادمٌ ضياؤها من زمنٍ سحيق.

ثُم قال بلهجة صريحة:

-"حسنًا.. لا بد أن اعترف أنك فزت.."

نظر لها لحظة فلاحظ ابتسامتها، وأضاف بسرعة:

-"مؤقتًا"

ضحكت بسعادة بالغة في نفسها.. لطالما شعرت بضـ..

-"ولكن بعيدًا عن كل هذا.. ماذا عن انطباعك الشخصي عن الأمر ككل.. بصفتك أحد المساهمين في تصميم الروبوت أيضًا؟"

كانت تريد بشدة الحديث عن تلك النقطة دون أن تدري لمَ.. ربما لأن قصتها مع الرجل الآلي تلخص حياة طموحها بإيجاز..

لذا وجدت نفسها تُجيب:

-"انطباعي كانطباع أي شخص يرى حلمه يلامس جدران الواقع.. لا بد أنك مررت بذلك الشعور من قبل..

كان يبتسم في تلك اللحظة في فهم.

.. هي كعلاقة أي فنان بلوحته.. يطلق خياله وطاقته كلها من أجل بلوغ أقصى درجة كمال ممكنة للوحته.. ثم يستفيق وهو يضع اللمسات النهائية عليها.. ليجدها أمامه كما تمنى.. أو ربما أفضل مما تمنى.."

استشعر مدى استمتاعها بالحديث عن حلمها.. بل يجزم أنه لم يرها من قبل بهذا الحماس الغريب..

"أتعلم؟.. عندما انتهينا من اختبارات (كمال).. وبدأنا في تشغيله.. راودني شعور غريب وأنا أتطلع إلى ملامحه البشرية الخالصة.. هو الخوف.. أو هي الرهبة.. نعم بالتأكيد كانت رهبة..

تلك الرهبة جعلتني أتساءل.. من منَّا يقدر على مواجهة طموحاته حينما تتحول إلى حقيقة؟! من منا لا يهاب أحلامه بالقدر

الذي يريدها؟!"

صمت للحظة، وقالت بلهجة ختامية:

-"مفارقة غريبة.. أليس كذلك؟!"

كانت الدهشة ما زالت تتملكه، فهو لم يرها من قبل بتلك الحالة. إلا أنه أجاب فورًا:

-"ليست غريبة.. فهي معادلة النجاح وبريق تحقيقه.."

بعد فترة صمت وجيزة، تحرك ببطء إلى باب المكتب، وقال لها قبل أن يخرج:

-"آآه.. نسيت أن أقول لكِ.."

نظرت له بتساؤل، فقال مبتسمًا:

-"مبارك حصولك على دعم المشروع.."

وأغلق الباب خلف نظراتها بهدوء.

- 2 -

مـرّ اليومـان التاليـان لحـديثهما كعجلـة أدارتهـا يـد عنيفـة بأقصى طاقتها. وها هي الآن تقف مع فريقها في تلك القرية الحديثـة صغيرة المساحة، وأمامهما الرجل الآلي – البشري: (كمال).

نظرت إلى (كمال)، ومر بذهنها خاطر سريع يقول إن الوصف الأدق لـ(كمال) هو البشري الآلي .. فهو مماثـل تقريبًـا لما يمكـن أن يكون عليه إنـسان في نفـس هيئتـه: رجـل يتـأرجح عمـره في أواسـط الثلاثينيات.. شعره بـني كثيـف.. عينـاه شديدة الـسواد.. بـشرته فاتحة.. ملامحه شرقية خالصة..

كان كل ما به ينطق بأنه بـشريّ، ولكـن مـن الـداخل يتحـوَّل ذلـك الإبـداع البـشريّ الخـارجيّ إلى مُجـرد أسـلاك وأليـاف ضـوئية ومعالجات فوتونية وأنظمة تبريد معقدة. باختصار: كان قلبه شـديد الآلية وكساؤه شديد البشرية.

كل هذا طـاف بـذهنها داخـل وحـدة الـتحكم المركزيـة الـتي أقيمت عند أحد أطراف القرية، بينما كان زميلها (أحمد) يتوجه إلى

(كمال)، ويقول:

-"إذن يـا (كمـال).. حـان الوقـت لإطلاقـك.. مـستعد يـا صديقي؟!"

على الفور تكونت ابتـسامة علـى وجهـه المصنوع مـن أليـاف مماثلة ظاهريًا لأنسجة الجلد البشريّ، وقال بلهجة بشرية خالصة:

-"مستعد يا سيدي"

تقدمت (ناهد) لتقف في مواجهة الرجل الآلي، ثُم قال:

-"ستنفذ التعليمات كما لقناك بالتفصيل..

لك حرية القيام بأي شيء في موطنك الجديـد.. ولكـن في إطـار القوانين.. يمكنك التفاعل مع أي شـخص.. علـى أن تعـود يوميًـا إلى الوحدة المركزية في منتصف الليل للقيام بعملية مسح شاملة وتصحيح الأخطاء.."

أضاف مُبتسمًا (كمال) بثقة بدا بها بعض من آليته:

-"إن وُجدت!"

ضحكت (ناهد) بنصف صفاء. فهي لم تستطع التأقلم بعد مع الرجل الآليّ . ما زالت تشعر أمامه بتوتر خفيف يزحف تحت أظافرها. فعلى الرغم من أنها شاركت في صنعه حرفيًّا إلّا أن عقلها وجسدها ما زال يتعامل معه كغريب قابلته في الشارع.

ترددت ضحكتها السابقة بابتسامات على زملائها، بينما قالت:

-"أرى أنك اكتسبت بنفسك ثقة لا بأس بها.. هذا جيد جدًّا.. ولكن التعليمات أعلى من أيّ شعور داخلي يراودك.. تمامًا كما لقناك.."

خفق قلبها مع ذلك التعبير شديد البشريّة الذي عكسه وجهه، فقد أومأ برأسه إلى الأمام قليلًا، ورفع حاجبيه قائلًا:

-"بالتأكيد"

قال له (إسلام) من خلفها:

-"لقد أنشأنا لك منزلًا صغيرًا في شارع (12) .. كي لا نثير التساؤلات.. فأنت تعلم أننا لم ولن نخبر الناس بحقيقتك إلّا في

الوقت المناسب.. ولكي نتيح لك أكبر فرصة ممكنة للتفاعل مع الناس.."

تحرك (إسلام) ليريه المنزل عبر الشاشة الحاسوب الفرعيّة، وعلى الفور –أو أسرع من "الفور"– كانت صورة المنزل قد انطبعت على صفحات ذاكرته الفوتونية.

و أكمل (إسلام):

–"كما زودناك بسيارة ستقودها لإتقان التظاهر بكونك إنسانًا طبيعيًّا.. ولستَ آلة.."

بصورة أو بأخرى، شعر (كمال) بقليل القليل من الإهانة، كعبد مُخلص يحب سيده وعمله، ولكنه لا يحب تذكيره بصورة مستمرة بأنه مُجرد "عبد"..

ولقد ظهر ذلك جليًّا على وجهه الذي تحولت ملامحه بصورة ما لتناسب ذلك التعبير، فمن الأمور التي تمت تنشئته عليها أنه لا يستطيع الكذب أو إخفاء مشاعره الحقيقيّة عن مصمميه، وذلك –في النهاية– يمثل مزيدًا من الراحة للبشر.

هنا قال الطبيب النفسيّ (هشام)، وقد فهم ما يشعر به:

-"إنه أمر واقع يا (كمال).. سواء سبب لنا ذلك ضيقًا أم لا.. ولكنها حقيقة لا يمكن تغييرها.. البشر أنفسهم يواجهون الكثير من تلك الأمور التي ليس بأيديهم تغييرها.. وهذا ما ندعوه بالواقعية.."

قال له (كمال) مُبتسمًا، وهو يهز رأسه بتقبل واضح:

-"لا تقلق يا دكتور.. إنه فقط ذلك الجزء البشري الذي زرعتموه في داخلي.. ولكن تكويني البرمجي كآلة يجعل ذلك كعملية حسابية صغيرة تدور في الخلفية دون أن تؤثر ولو بذرة على البرنامج الرئيسيّ.."

ابتسم الجميع بارتياح للإجابة الصريحة، وعادت (ناهد) تقول له:

-"حسنًا يا (كمال).. إذن إلى اللقاء؟"

صافح الآلي طاقم العلماء، ثم استقل سيارته وانطلق بها تحت غروب الشمس إلى وجهته الجديدة و "حياته" الجديدة.

تابعته (ناهد) بقلب وعقل خاويين، تمامًا كما فعلوا جميعًا،

كأنما التصق وجدان كُل منهم على نسيج واحد ينبض بنفس المشاعر الخاوية.

* * *

عندما يُفكر آلي -بشريّ.. فإنه يفكر بنفس الكيفية التي يعتقد مبرمجوه أنهم يفكرون بها..

راودت الخاطرة نفس (كمال) الآلية وهو يتمعّن عمليّة تفكيره برويّة، بينما يقود السيارة بكفاءة مطلقة إلى مكان منزله.

وبما أن العلم البشري -رغم تقدمه- لم يستوعب كل ما يدور بداخل الإنسان.. لذا لا بد أنه هناك نوعًا من الاختلاف بين عقليّة البشر وعقليّة الروبوت.. مهما بدا الروبوت شديد الشبه من صانعه.. والدليل الواضح أن شكلي الخارجي قد يماثل البشر.. بينما تكويني الداخلي ليس ذلك أبدًا..

هكذا تمادى به تفكيره، وعقله الذي لا يكل يحاول الوصول لفلسفة خاصة يُدير بها عقله الآليّ..

دلف إلى شارع (12) حيثُ منزله.. ثاني منزل على اليسار.

كان كباقي منازل القُرى الحديثة، من طابق واحـد، مـساحته لا تتعدى المائة وخمسين مترًا مُربعًـا، ويحفـه شـريط أخـضر صغير يفصله عن الجار.

ركن السيارة أمـام المنـزل، ثُـم وقـف بجوارهـا يرصـد المكـان بنفس آلية تعودت على الفحص المُنمق..

كان الوقت صيفًا، والهـواء الساخن - رغم احتضار الشمس- لا بـد أنـه يلـهب أجـساد البـشر خـارج منـازلهم. هكـذا استـشعرت حسّاساته الداخلية حرارة الجو فما كان منه إلّا أنـه شـعر بـالحرارة كما يفعل البشر.. ولكن دون تعرُّق.

على أن نظرته للمكان لم تطل، وسرعان ما كان يخطـو بهـدوء وثقة عبر الشريط الزراعيّ الصغير إلى منزله..

وقف أمام الباب، مُخرجًا بطاقة العبور الأمنيّة..

"مرحبًا.."

حمـل النـسيم الـساخن الـصوت إليـه، فالتفـت يـدرس وجـه مُحدثـه. كـان شـابًّا في منتـصف الثلاثينيـات طبقًـا لمـا حـسبه عقـل

(كمال)، وقال:

-"مرحبًا بك.. .يا.."

ابتسم ذلك المُرحب، وقال بوجه بشوش:

-"عزيز.."

فبادله (كمال) الابتسام وقال:

"أهلا أستاذ عزيز.. أنت جاري إذن؟"

أقبل الجار عليه، مُصافحًا إيّاه بحرارة واضحة، وقال بينما ينظر إلى عينيه مباشرةً:

-"نعم.. أنت جاري الجديد.."

ثُم أشار بيده إلى اليمين، حيثُ منزله المُطابق خارجيًّا لمنزل (كمال) باستثناء بعض الاختلافات الدقيقة في درجات الألوان، وطريقة تنسيق الحديقة.

تحركت معادلات (كمال) بأسرع من الفور لتعمل على تنفيذ الأوامر أو "استراتيجية المهمة الموكلة إليه" كما يصفها صانعوه..

كُن اجتماعيًّا.. كُنْ ودودًا..

-"تفضل معي يا أستاذ عزيز؟"

وأشار إليه بالدخول. فأجابه (عزيز):

-"إذن عزيز.. دعك من أستاذ تلك.."

أومأ (كمال) برأسه، في نفس الوقت الذي دلف إلى المنزل:

-"تفضل يا عزيزي عزيز إذن.."

خطا (عزيز) خلف جاره داخل المنزل بهدوء زادته الراحة التي تغلغلت إلى كيانه مع الجو المُكيف كحال جميع الوحدات. استوعب المكان بعينيه قائلًا:

-"منزلك جميل يا أستاذ -.. تصور أنني نسيت أن أسألك؟!"

وبدا الارتباك واضحًا في نبرة صوته الأخيرة.

عليك أن تكون مُجاملًا..

ضحك (كمال) لمجاملة جاره، بينما يقوده إلى حجرة الاستقبال أنيقة التأثيث، قائلًا:

-"اسمي (كمال عبد المولى).."

ثُم أجاب على عبارة (عزيز) الأولى:

-"أعتقد أنه كذلك فعلاً.. يقول زملائي إن لي ذوقًا جيدًا.. فكما ترى أنا أحاول!"

وتطلع إلى منزله بنصفيه؛ البشري والآلي. قاده تحليله إلى أن المكان أنيق فعلاً.. لقد عنوا كثيرًا بالتفاصيل. تمامًا كما كانت تقول الدكتورة (ناهد) له: "السر في التفاصيل دائمًا.."

أشار إلى جاره بالجلوس على الأريكة، بينما جلس على الكرسيّ أمامه، وقال مُتراجعًا بظهره على المقعد الوثير:

-"لم تقل لي يا (عزيز).. ماذا تعمل؟"

-"مركز أبحاث السُكان.. أعمل رئيسًا لقسم التنمية السكانية في قطاع الدلتا.."

-"وظيفة جيدة..؟"

أومأ (عزيز):

-"بالتأكيد.. لقد ترقيت منذ فترة قليلة .. وها أنا أعمل على مواكبة الأمر.. المسؤوليات كما تعلم..

وماذا عنك؟"

أما الآن.. فقد حان وقت الكذب..

قال ذلك لنفسه، بينما يجيب جاره:

-"أعمل في المؤسسة الوطنيّة للإلكترونيات.. عالم كما لا بد أنك لاحظت عليّ!"

ابتسم (عزيز)، وقال:

-"لا لم ألحظ شيئًا.. هل تقصد أنك أعزب؟!"

اندمج (كمال) تمامًا في الحوار ووجده يجيب مازحًا:

-"بالضبط!"

تنهد (عزيز) ساخرًا:

-"حسنًا فعلت!"

دعابة..

ضحك (كمال)، وقال:

-"ربما.. ولكنه فقط شعور الوحدة الذي يزور المرء بين حين

وآخر.."

قال (عزيز) مديرًا دفة الحديث، بعدما رأى بعض الوجوم على (كمال)، أومأ (عزيز) برأسه بينما يمط شفتيه:

-"هذا أفضل.. صدقني!"

وتابع مربتًا على مسند الأريكة بجواره:

-"أنا متزوج ولديّ ابن في السادسة من عمره.. شيطان حقيقي.. ولولا المربية الآلية لكنت انتحرت!"

فأجابه (كمال) بتلقائية:

-"الإنسان مستحيل إرضاؤه.."

اهتز تفكيره الفوتونيّ مع وقع الجملة. كان كأنما يتحدث عن نفسه.. عن شبح إنسان يقطن خلف قلبه الضوئيّ.. سجينًا هناك قانطًا بحاله.. بل سعيدًا به كذلك..

صمت فترة يتفكر في الأمر، ثُم تذكر أن يُكرم ضيافة جاره قائلًا بارتباك بشريّ وهو يعتدل مستعدًّا للتنفيذ:

-"صحيح.. ماذا تريد أن تشرب؟"

فهز الجار الشاب رأسه مادًّا يده بشكر، وقال:

-"لا شيء.. أشكرك"

ويبدو أنه أيضًا تذكر شيئًا ما، فقال:

-"سأتركك الآن لترتاح.. ولحديثنا إن شاء الله.. بقيّة"

وقام من مجلسه، ثُم تصافحا، وسرعان ما كـان (كمـال) يغلـق بابه على نفسه بما يماثل ارتياح إنسان يمر بالموقف ذاته.

الاختبار الأوّل: تم بنجاح.

* * *

قالت (ناهد) لزملائها، وهي تبعد بنظرها عن الشاشة مراقبة (كمال):

-"ما رأيكم؟"

تراجع الجميع في مقاعدهم، بينما قال (هشام) النفسيّ:

-"أرى أن الأمور تسير على ما يُرام.. فعقله الآن يبحـث عـن أسلوب لإدارة تفكيره بالصورة التي يرتاح إليها..

أما بخصوص طريقة تفاعله وطريقة معالجة عقله للكذب فهي طبيعية تمامًا.. هو الآن كالطفل الذي يكذب لأوّل مرّة في حياته.. تراه يضطر فعل الأمر ببعض المشقة.. ورغم كل هذا إلّا أنه أجاد الدور بصورة معقولة كمرّة أولى.. وبالطبع سيتحسن الأمر وسوف يتقن الدور أكثر مع الوقت بطبيعته المحاكية للبشر.."

صادف تحليله المنطقيّ هوًى في نفسها، كما فعل مع زملائها الذين بدا الاطمئنان جليًّا على ملامحهم المتراخية.

هز (إسلام) رأسه برضا، وقال:

-"هذا رأيي أيضًا.. وهو يتوافق مع ترددات عقله الفوتوني.. وانتظام ممرات معالجة البيانات.. أرى أنه يعمل بكفاءة مطلقة حتى الآن"

ساد الصمت للحظات، وهم يتابعون وجوه بعضهم البعض بعيون لا ترى سوى مشهد واحد: (كمال) في منزله ووسط مجتمع بشريّ، يُعامَل ويتعامل معه كما يفعل البشر.

بينما قال (أحمد) رافعًا حاجبيه:

-"ولكن ماذا عن رد فعل الجار.. أتظنون أنه شعر بشيء

مُريب؟"

رقص الرفض في العيون الملتمعة، بينما قال (هشام):

-"يمكنك مراجعة قراءة الحاسوب النفسيّ رغم أنه لن يماثل خبراتي أبدًا.. الرجل لم يشك قط في (كمال).. ربما يشعر ببعض الغرابة في التعامل معه.. ولكننا أعددنا لذلك جيدًا.. ولذا قال إنه وحيد.. هذا سيدفع الجار للاحتكاك به أكثر ولن يطول الأمر ونجده يعقد معه صداقة.."

لسبب غامض تذكرت (ناهد) حديثها مع (أسامة) رئيس قسم التنمية البشريّة، ووجدت نفسها تستكمل وكأنها ترد على الأخير:

-"لذا كان لا بد من إخفاء هويَّة (كمال) عن الناس.. فهذا وحده كان كفيلا بتحطيم جسور العلاقة الطبيعية بينهم كبشر وبينه كآلة.. مما كان سيعيده إلى مكانة أدنى لن تزيد عن كونه مُجرد آلي مُتطوّر.."

تخيلت رد فعل (أسامة) حينما يسمع ذلك الرد، بينما قال (أحمد) فجأة بصوت نشاز:

-"وهذا ما أردت دومًا أن أفهمه.."

ذلك الرد أشعرها بأنه خرج من لسان (أسامة) وليس (أحمد)، ولكنها لم تفهم ماذا يقصد بالسؤال.. أو ربما عقلها يعابثها فحسب.

التفت إليه الجميع في تساؤل أطلقه (إسلام) من عقاله:

-"ماذا تعني؟!"

-"أعني لماذا نُريد الناس أن تُصدق بشريّته وألّا ترى آليته؟!"

ضحك (هشام) بهدوء، وقال باستغراب:

-"ماذا جرى لك يا (أحمد)؟.. نفعل ذلك بالتأكيد للتحقق من مدى بشريّة تفكيره في المواقف التلقائية ومدى صدق تفاعله مع العامة.. حتى نتأكد من مدى جاهزيّة نوعه للتطبيقات العملية والعلمية المختلفة.."

بحدة غير مقصودة، انفتح فم (أحمد) يطلق طلقات من كلمات:

-"ولماذا نفعل؟!..

هذا السؤال يؤرق منامي منذ فترة.. لماذا نفعل ما نفعل؟! لماذا نكُسب الروبوت كُل تلك البشريّة؟

كان يمكن للروبوت أن يكـون بـأقوى كفـاءة .. ولكنـه بـشكله المميز والخاص به.. دون تشبه بالبشر سواء شكليًّا أو مضمونيًّا.."

صدمتهم كلماته، ولم يـستطع أحـدهم التفكـر بـشيء أو قـول شيء. بينما تنهد هو، وقال:

-"أنا لا أستنكر بقدر ما أتساءل في حيرة حقيقيّة عـن طبيعـة تفكيرنا كعلماء.. عن طبيعة رؤيتنا كبشر بالنسبة لآلة شـبه بـشريّة مثل (كمال).."

كان (هشام) أوّل من أفاق من وقع الكلمات، قال:

-"لديك الكـثير مـن الحـق.. فـأمر الروبـوت وطبيعـة الـذكاء الصناعي برمته ما زال مُحيرًا من الناحية النفسيّة بالنـسبة للبـشر.. ولكنه كذلك ربما يعطي فكرة عامة عن طبيعة الإبداع البشريّ ككُل.. فالإبداع.. مهما علا.. هو بـشريّ المـصدر.. لـذا فهـو بـشريّ!.. نعـم يمكننا استخدام إطلاق الوصف (بشريّ) عليـه دون توضـيح!.. وهـذا

يُلخص الأمر كله.. حلم الإبداع لدى الإنسان ما زال وربما سيظل قريبًا من بشريّته.. فهو يصنع روبوتا له يدان وقدمان.. لديه خمسة أصابع في كل يد وفي كل قدم.. لديه فم وعينان.. يصنع روبوتا يفكر بنفس طريقته ويحمل نفس ملامحه.. إنه يصنع شيئًا منه ينتمي إليه.. شيء باختصار.. بشريّ"

ثُم أضاف مُبتسمًا:

-"ثم لا تنسوا أننا نتقاضى الكثير على إبداعنا هذا.. أليس كذلك؟!"

ضحكوا في خفوت، وكُل منهم يتفكر في كلماته، ويُعيد طرح الأسئلة على نفسه بطريقة جديدة. كأنما هي إعادة اكتشاف لجزء جديد من ذواتهم، أصابه الزمن والاعتياد بنوع من الجفاف.

-3-

رقد (كمال) على سريره، وهو يطالع بعض الكُتب الجديدة

التي حملها معه من الوحدة، بينما عقله الفائق يستوعب كمّ المعلومات التي تقع عليها عيناه بسرعته الفوتونيّة.

كان ذلك عندما دق الباب بهدوء، كان يعلم أنه الخادم الآلي..

"تفضل.."

فُتِح الباب، ودخل الخادم، قائلًا:

-"أتريد أن أُحضر لك الطعام يا سيدي؟"

نظر إليه (كمال) بضيق لم يفهمه. كان الخادم مثله كمثل كل الرجال الآليين في ذلك العصر.. كان أبيض اللون وهيكله الخارجيّ مصنوع من سبيكة معدنية لها لمعان خاص. كانت آليته واضحة جدًا للأعين.

هزّ رأسه نافيًّا بوجوم:

-"لا .. أشكرك"

فأومأ الخادم الآلي باحترام، تمامًا كعبد مخلص أو ككلب مطيع. بينما ظل (كمال) يرمقه في صمت إلى أن أغلق الباب.

كانت العديد من الأفكار المتداخلة تجاذب نفسه أطراف التفكير. وفي نفسه انطلقت مجموعة من التفاعلات المتسلسلة التي دفعته موجات تضاغطها إلى عشرات النقاط التي يحتاج إلى التأمل فيها.

كان لقب "سيدي" الذي قاله له الخادم يؤرقه، فهو مهما كان تركيبه مُجرد آلة بلا روح. هو أقرب ما يكون إلى انعكاس إنسان. فقط مُجرد انعكاس صنعه الإنسان ليزداد فخرًا بذاته. كان مُجرد آية من صنع الإنسان للإنسان.

شعر بنوع من الكبت، حتى إنه ودَّ أن يصرخ في خادمه: أنا مثلك أيها الخادم!.. مثلك!.. لا تنخدع بالمظاهر!

على أن طريقة حواره مع نفسه لم تكن كما يألف البشر.. فمشاعره مقارنة بمشاعر الإنسان مُجرد تفاعلات زائفة. ولكنه لم يكن يعلم هذا، فهو لم يختبر المشاعر البشرية كما اختبرها البشر، ولن يفعل ذلك أبدًا.

تفجّرت في عقله دوامة جديدة حاملةً معها تساؤله الملتهب: لماذا صنعتموني إذن؟! لماذا؟!

كانت أفكاره كتفاعلات نووية جامحة تـدور في بيئـة محكمـة مُتحكمة ومُسيطرة، تمامًا كما قال للخبير النفسي مـن قبـل: مُجـرد عملية حسابية صغيرة تدور في الخلفية دون أن تؤثر ولـو بـذرة علـى البرنامج الرئيسيّ.

عاد يتطلّع إلى كتابه بينما يبتلعه التفكير مُجددًا.

رنّ الهاتف بجوار السرير، فانتبه ضاغطًا على زر الرد. علـى الفور تكونت صورة جاره (عزيز) بحجم كفين مفرودين، وقال :

-"مرحبًا!"

اعتدل (كمال) وهو يجيبه:

-"أهلًا يا عزيزي (عزيز).. كيف حالك وحال الأولاد؟!"

ابتسم جاره، وقال:

-"بخير حال يا (كمال).. الحمد لله.."

واستكمل بسرعة، بشكل بدا واضحًا بأن ما سوف يقـول هـو هدفه من المكالمة:

-"ما رأيك أن تزورنا الليلة في منزلي؟ باختصار إنني أعزمك على العشاء لدينا!"

رد بآلية:

-"متى؟"

فأجابه الجار مُبتسمًا:

-"..في تمام العاشرة؟"

نظر (كمال) إلى الساعة فوجدها الثامنة إلّا الربع..

ما زال الوقت باكرًا على ميعاد الفحص اليوميّ.. فكرة جيدة.

أجاب مُبتسمًا:

-"بالتأكيد.. إنه شرف لي.."

بدا الارتباك على (عزيز):

-"إذا كان لديك أيّة ارتباطات دعني لا أزعجك؟"

هز (كمال) رأسه نافيًا، وقال:

-"لا يا عزيزي.. إذن ميعادنا في العاشرة بإذن الله"

بدا إرتياح مجامل على وجه (عزيز)، وقال:

-"بل هو شرف لي أنا.. في انتظارك"

انطوى طرفا المحادثة، وانتهى الاتصال، ليترك كُلًّا من الرجلين يستعدان للأمر. وعندما دقت الساعة الإلكترونيّة في منزل (عزيز) العاشرة مساء، صاحَبها صوت جرس الباب، وصورة (كمال) واقفًا أمام كاميرا الأمن المنزلي، منتظرًا ترحيب جاره.

لم يملك (كمال) من إمكانياته المعنويّة سوى ابتسامة قابلها صديقه وجاره بأخرى، بينما يقول له:

-"تمامًا في موعدك.."

قال (كمال) بينما يخطو بثبات داخل منزل جاره:

-"لقد اعتدت على الدقة حتى صرت أتنفسها!"

-"أنت رجل إلكترونيّ إذن!"

عبرت مزحة صديقه صدره كدوامة باردة. كان ذلك الشعور بالنسبة له نوعًا من المفاجأة، ربما لأنه غير معتاد، أو ربما لأنه

أصاب قلب الحقيقة بمزحة سطحية.. أو ربما أرادها كذلك!

رغم خبرته القليلة في التعامل مع البشر، إلّا أن كل ما استطاع استخلاصه من كل ذلك أن التعامل مع البشر كلعبة التنس: عليك أن ترد التصرف بآخر.. ضربة أمام ضربة: ضحكة أمام ضحكة.. مجاملة أمام مجاملة.. وربما عنف أمام عنف أيضًا!

خفت الشعور البارد السابق عندما التقى في الطريق إلى قاعة الاستقبال زوجة (عزيز)، فسلّم عليها، ورأى أنها بالفعل لا يمكن إلّا أن تكون زوجة لهذا الرجل السعيد، أو الذي يبدو سعيدًا.

جلسوا، بينما يتطلّع (كمال) إلى المكان، ويقول مُبتسمًا:

-"وكُنت منبهرًا بذوقي؟!.. لا.. علي أن أعترف أنك غلبتني!"

ردت الزوجة هذه المرة:

-"أشكرك يا أستاذ (كمال).."

ثُم ذهبت لتجهيز المائدة.

لم يكن يمثّل له الطعام مشكلة، فهو قادر على مضغه

وابتلاعه، وعندئذ سيتكفل جهاز الحرق الداخليّ لديه بالباقي: سيستخلص الطاقة من الطعام، والأجمل أنه لن يترك فضلات تحتاج إلى إخراج.

قال (عزيز) بجديّة مفتعلة:

-"امرأة لطيفة.. أليس كذلك؟!"

-"بالتأكيد"

سأله (عزيز) عن عمله، فأجاب:

-"يسير على ما يُرام.. أتعلم أن علم الإلكترونيات لم يعد عمليًّا يشمل الإلكترونيات؟!.. فلقد عفا عن تلك التقنيات الزمن.. ولكن تخليدًا لذلك العصر ظل اسم فرع الفوتونيات وعلم الأجهزة الميكرسكوبية بالاسم ذاته.."

-"آها.. لذا دائمًا ما كنت أتساءل عن ماهيّة فرع الإلكترونيات وما فائدته.. فإنني أعلم أن كل أجهزتنا المُعاصرة صُنعت من دوائر فوتونيّة.."

نعم كل أجهزتكم.. وأنا منهم!

هكذا فكر بما يماثل السخرية، بينما أضاف جاره هازًّا رأسه:

-"إذن دعنا نأمل ألّا يصير ذلك هو حال القسم الذي أعمل به أيضًا!"

ضحك الاثنان للدعابة، بينما تأتي الزوجة لتدعو (كمال) ومعها الخادمة الإلكترونيّة للعشاء.

حينئذ، أتى البرق.

-4-

فجأة، عبر زجاج الشرفة المُطل على الحديقة ضوءٌ خاطفٌ شديد السطوع. كان له لمعان عجيب حتى كاد ضوءه يطغى على الإضاءة الداخليّة للمنزل. فوجد الجميع -بما فيهم (كمال)- أنفسهم يُسرعون تلقائيًّا نحو الشرفة بفضول وغريزة رجل كهف.

فتح (عزيز) الباب الزجاجي للشرفة، خلفه زوجته ووراءها

(كمال)، بينما يمعن ثلاثتهم النظر في السماء وتلك الظاهرة المثيرة للدهشة التي تحدث بها.

وقتها أقسم الجميع في نفسه أنه لم ير ضوءًا بمثل ذلك السطوع في حياته كلها. فهو لم يكن برقًا بالمعنى الحرفيّ.. بل كانت السماء كلها تضيء باللون الأبيض لثانيتين طبقًا لما أحصاه (كمال). ثانيتان يغطي فيها اللون الأبيض كل شيء. يغشي العيون.. يخفي النجوم.. يُغلق الفضاء.. يسحر البشر.

أمام تلك الظاهرة المذهلة، فغر (عزيز) فاه، وهو يتمتم عبارات غامضة بعجز، بينما تأوهت زوجته في عدم فهم. أما (كمال) فكان أول المتحدثين. فقد قال دون أن يبعد ناظريه عن السماء:

-"أيّة ظاهرة هذه؟!"

خفض (عزيز) بصره على (كمال)، الذي منح الضوء الخاطف كالفلاش مظهره حالتين ما بين الشيب بلمعان الضوء الأبيض وبين الشباب الذي يمثل حالته الطبيعيّة. نظر للحظات إلى الأشجار فوجدها ترتعش هي الأخرى بين لونها الحالك في الظلام وبين

البريق الأبيض.. فأطلقت ظلالها المخيفة، والتي منحت الجو الصيفي المُعتدل صبغة قوطيّة كئيبة..

قال (عزيز) من وسط جموده ورهبته من سمت المكان الجديد:

-"لا أعلم!"

لم يحسب أيٌّ من الجار وزوجته الوقت الذي استغرقاه في التحديق إلى الضوء السماوي المدهش، ولكن (كمال) حسبها. فقد استغرقت الظاهرة ست دقائق وأربعين ثانية تقريبًا. عندئذ فقط انتهى الأمر كما بدأ: فجأة.

بعد توقف الظاهرة بعدّة ثوانٍ، وعودة المكان إلى طبيعته الأصلية، بدأ الأدرينالين زحفه مُتراجعًا من دماء كل من تابع الظاهرة.. حاملًا معه توترًا انتهى.. وتاركًا خلفه سجادة حريريّة من الطمأنينة الناعمة.

لم يكن هناك أدرينالين في أسلاك (كمال) الضوئية، ولكنه يعلم ويشعر ماذا يعني أن يتوتر البشر.. هو شخصيًا بدا غير متفائل بتلك الظاهرة، حتى بعد انتهائها.. ووجد نفسه تسأل: ماذا بعد؟!

"حمدًا لله!"

قالتها زوجة جاره بصوت بدا على شفا البكاء. بينما يربت زوجها على كتفها، ويقول لـ(كمال):

-"خيرًا بإذن الله.. لا بد أن ذلك البريق سيكون حديث جميع القنوات الفضائيّة الآن!"

وأضاف كما لو كان قد نسي وجوده:

-"تفضل يا (كمال).."

في صمت أبلغ من أيّ كلام، دخل الجميع لتناول العشاء. بدا من الواضح أن آثار الأمر لا تزال عالقة في النفوس.. ولذا كانت شهية الجار وزوجته ضعيفة. أما (كمال) فجهازه الفوتوعصبيّ مُبرمج على تلك الحالة، لذا فعل كما فعل الزوجان.

بعد العشاء، عادوا إلى حجرة الجلوس، وقد بدؤوا يفيقون من حالة الصدمة التي رسبتها الظاهرة في أجسادهم، حيث فتح (عزيز) التلفاز المجُسم ليتابعوا على القنوات الإخباريّة المزيد عن الظاهرة

تلك.

* * *

"حالة من الصدمة انتابت من رأى الظاهرة السماوية الغريبة التي سادت جميع أنحاء الكوكب في نفس الوقت ولكنها كانت أوضح في الليل. استمرت ست دقائق وأربعين ثانية، ثم انتهت فجأة كما بدأت..

وعلى صعيد آخر، عقد المجلس الأعلى للفلك اجتماعًا طارئًا حيثُ يدرس فيه الخبراء الظاهرة عبر مجسمات التسجيل بالإضافة إلى دراسة تحليل المجسات الجويّة؛ للتوصل إلى تفسير مبدئيّ.

على أنهم يأكدون أنها ظاهرة عرضية لن تتكرر. كما أنها لم ولن تُحدث أي تأثير من أيّ نوع.

لذا نرجو من الجميع التزام المنازل والتحلي بالهدوء حتى يتبين الأمر.."

* * *

تابعت (ناهد) مع زملائها التقارير المتتابعة للقناة الإخبارية

المصحوب بفيديو تسجيليّ عن الظاهرة، بينما يدق قلبها في قلق. كانت لا تزال في الوحدة المركزيّة، فقد أصرَّت أن تتواجد في اليوم الأول لتجربة الروبوت بصورة كاملة، بعد ذلك ستحد من زياراتها للمركز تدريجيًّا، فطبيعة عملها الآخر كرئيس للقسم يحتاج إلى كثير من الصفاء الذهنيّ وأقل تشتت مُمكن.

كان الوجوم قد خيّم على الجميع، ولم يدر أيهّم ماذا يقول ولماذا يفعل. شعرت (ناهد) بانقباض غريب في قلبها وأنها على وشك البكاء.. شعرت بأنها وحيدة للغاية.

وجدت نفسها تخطو إلى خارج الوحدة، فتطلع إليها الجميع، بينما سألها (إسلام) بوجوم:

-"إلى أين؟"

-"سأجري اتصالاً"

شاردةً، قطعت الطريق إلى الخارج، حتى عبرت الباب الإلكتروني، حيثُ الليل وسكونه، كما لو لم يحدث شيء -أو برق- منذ قليل. التقطت هاتفها الخلويّ للاتصال بـ..

(أسامة).. يتصل بك.

دوى صوت الخلويّ المرئيّ، فارتفع حاجباها في دهشة ممتزجة بالامتنان.

-"(ناهد) .. أنت بخير؟!"

- (بنوع من الطمأنينة): "نعم بخير.. وأنت؟!"

- (بانفعال لم تره عليه من قبل): "أنا بخير.. هل رأيت الـ.. ؟!"

- "نعم.. الأمر مخيف يا (أسامة) .. لا أعتقد أنني سأنسى ذلك المشهد طالما حييت.. ولا أحد يعلم ماذا حدث وما سوف يحدث.." (وصمتت لحظة) "أين أنت؟!"

- (بلهجة تقول ماذا تريدين): "في طريقي إلى منزلي.."

- (لم تستطع كبح ما تُريد): "أيمكنك أن تمر عليّ؟"

- (لم يندهش بل ابتسم في قرار نفسه): "بالتأكيد.. أين أنت؟!"

وصفت له العنوان، فلم يلبث أن قال:

-"ربع ساعة وأكون عندك"

أغلق كلاهما الخط. بينما شعرا بأن الخط بين قلبيهما قد انفتح كما لم ينفتح من قبل باتصال أقوى من خطوط الهاتف الفضائيّة بملايين المرات.

كانت تريده بجوارها لسبب لم تدر ماهيته، ولكنها أدركت منذ اقترحت عليه المرور عليها بشيء عجيب يدور في أعماقها. لم يكن ضعفًا نفسيًّا وحسب، بل كان وهنًا عامًّا يتسلل إلى خلاياها ببطء كالسُم.

سمعت صوت (إسلام) يناديها، فهرعت إلى الداخل محتقنة باللهجة الجزعة التي نادها بها زميلها.

-5-

"لم يكد يمر أكثر من ساعة على تلك الظاهرة العجيبة، حتى

بدأت شكوى عامة بحالات ضعف عجيبة. حيثُ يشعر المصاب بتثاقل في الأطراف وتشتت ذهني بالإضافة إلى صعوبة في التنفس.

يحاول الأطباء السيطرة على الموقف بسرعة، خاصةً أن الأمر أشبه بوباء عالميّ فائق السرعة.

لذا ننبه على الجميع بضرورة اللجوء إلى خطة الطوارئ والذهاب إلى أقرب مستشفى، وعدم التزاحم على الطرقات حتى لا تكون الاصابات أفدح.

جدير بالذكر أن المعلومة الوحيدة المتاحة الآن، أن ذلك الوهن لا يرتبط برؤية أو معايشة الظاهرة السابقة. فقد ظهرت نفس الأعراض على أشخاص لم يتعرضوا للظاهرة مباشرةً، مما يعني بالضرورة وجود شيء ما في الجو يؤدي إلى تلك الحالة. يأتي ذلك رغم التأكيدات المستمرة على سلامة الجو من أيّة مُركبات غريبة.

ولكن حتى الآن، لم تظهر حالات وفاة بسبب تلك الأعراض العجيبة.

ومن جهة أخرى، ما زال خبراء المجلس الأعلى للفلك

يدرسون الظاهرة، ولم يتوصلوا حتى الآن لجديد.

وبخصوص الرحلات المُحلقة في سماء الكوكب، فقد بدأت حواسيب الطوارئ العمل وبالفعل بدأت خطة الهبوط الاضطراريّ لجميع الطائرات المُحلقة.

تابعونا لمعرفة آخر التطورات"

* * *

تابع (كمال) مع جاره وزوجة الأخير القناة الإخبارية، وهي تتابع أخبار الوباء الغريب، الذي ظهر فجأة عقب ساعة واحدة من الظاهرة السماوية العجيبة. ومع كل دقيقة تمر كانت ضربات القلوب تزداد سرعة وتوترًا، بينما الوجوه المترقبة تحتقن بالدم كأنما دماؤهم نفسها قد توقفت لمعرفة المصير الذي ينتظر حامليها.

أما (كمال) فكان مُتوترًا بالمعنى الآلي. فهو قلق من ذلك الوباء الذي قد يعني خطرًا داهمًا على الجنس البشري. فهو – رغم كل شيء– يحترم ويحب البشر كثيرًا.. وهذا هو حال أي كائن تجاه صانعه.

على أن توتره لم يمنعه من السعي في محاولة لتحليل الأمر بخبراته المعرفية العريضة. إلّا أنه –حتى تلك اللحظة– لم يتوصل لشيء.

تراجعت زوجة (عزيز) في مقعدها فجأة، وقالت بعينين زائغتين:

–"(عزيز).."

فامتقع وجه زوجها، وهو ينحني عليها في جزع قائلًا:

–"ماذا هنالك يا حبيبتي؟!"

فقالت باقتضاب وإرهاق عجيب:

–"الوهن"

انتبه (كمال) وقد بدأ قلقه يتزايد. شعر بعجز شديد يكتنفه.. فزوجة جاره تكاد تحتضر بينما هو –بكل قدراته– لا يستطع التحرك و فعل شيء! تمازج سخط (كمال) مع عجزه فشكلا مزيجاً بشريًا شبه خالص. كان نفس المزيج يمر بكيان (عزيز) مع

الخوف الذي اكتنفه. فهو الرجل الذي من المفترض أن يحمي زوجته، يقف عاجزًا أمام الوهن القاتل المحيط بها.

"لا بد أن نذهب إلى المستشفى.. لا بد.."

صرخ بها (عزيز) وعيناه الملأى بالدمع تنظر إلى (كمال) بنوع من الاستعطاف، كما لو كان يبحث في ملامح صديقه عن حل أو علاج سحريّ ينقذ زوجته. فقد كانت حالتها تتدهور بسرعة شديدة كتأثير كرة الثلج على المنحدر. حيث بدت جفونها شبه المغلقة تبذل جهدًا مضاعفًا للبقاء نصف مفتوحة. وقد لانت شفتاها بصمت غير كامل.. فصدر منها أنين متقطع أشبه بالنشيج.

أسرعوا إلى السيارة منطلقين إلى المستشفى. كانت المفاجأة التي تنتظرهم هو كم هائل من السيارات المتكدسة في الطريق، بينما تعوي أصوات المنبهات باستمرار كأجراس خطر نوويّ.. صراخ النساء.. بكاء الأطفال..

السيارات بالكاد تتحرك من شدة الزحام الذي أرساه الفزع في النفوس، فأثار جنونها.

"اللعنة.. اللعنة.. اللعنااااااااااااااة"

ضرب (عزيز) المقود بيديه في عنف، وهو يصرخ بعجز تام. بينما صمت (كمال) في وجوم، وهو يدرس إمكانياته التي قد تفيد صديقه. إلّا أن إمكاناته كآلي بشري كانت أقل بكثير من حجم المشكلة.. ماذا يمكنه أن يفعل؟!

انسابت الدموع على خديّ (عزيز)، الذي قال بصوت أجش:

-"يا إلهي.. ماذا أفعل؟! إنني عاجز تمامًا.. تمامًا.."

ومع نهاية كلماته، كان الوهن قد بدأ يدق كمطرقة خفيّة على جسده.

"لا بد أن أفعل شيئًا!"

دوت العبارة مرتين .. مرّة في نفس (كمال) ومرّة بصوت جاره الذي بدأ الوهن يتمكن منه، فانهار جسده على مقعد القيادة. نظر (كمال) للحظة إلى صفوف السيارات المكدسة .. كأنه يوم الحشر. ثم هرع خارجًا من السيارة، أخرج جاره وزوجة الأخير وحملهما على

كتفيه، بينما يحث قدميه المعدنيتين قلبًا بأقصى ما يستطيع إلى أقرب مستشفى.

كان الآن يتصرف كالبشر. فهو بحكم منطقه الآلي يعلم أن المستشفى لن يجدي لأنه بالتأكيد ممتلئ بالمرضى.. ولكن السبب الأهم أن علاج الوباء لم يُصنع بعد. ولكنه ارتأى أن هذا الخيار هو الوحيد أمامه.

وهكذا دفع الأمل الزائف في دوائره الفوتونية دفعًا، بينما يحمل صديقيه وسط الزحام إلى المستشفى.

* * *

"ما زال الوباء ينتشر بسرعة فائقة وحتى الآن لم يجد العلماء أيّة حلول حقيقيّة لتخفيف المرض على الأقل.. فكل العقارات المبتكرة باءت بفشل ذريع..

بدأت المستشفيات تسجل أعدادًا كارثية من الوفيات الرسميّة. هذا غير الأعداد غير الرسمية التي لم تُسجل..

الأمر كله لا يبشر بالخير، ويوحي بأن نهاية العالم قد

حانت..

فهل من مُنقذ؟!"

* * *

أوقف (أسامة) سيارته أمام المركز في تخبط، بينما يجاهد للحفاظ على ما تبقى له من قوّة ليأتي إليها.

ففجأة استيقظت مشاعره تجاه (ناهد) بقوة لم يعرف لها مثيلا من قبل. ربما لشعوره بالخطر الداهم المحيط بالجميع بعد ظاهرة البريق تلك.. ربما للضعف الذي ظهر لأوّل مرّة في صوتها وملامحها.

ولكن كل ما يفكر به وما يستطيع فعله هو أن يبقى بجوارها ما تبقى في عمره من دقائق.

دلف إلى المقر بخطوات مثقلة منهكة، حتى إنه تعثر مرّات ومرّات، وبدا له الطريق إليها عبر المكان طويلا للغاية.. للغاية.

كان جلّ ما يخشاه أن يدهمه أو يدهمها الموت قبل أن يحظى بتلك اللحظة الوحيدة التي تمناها أن تمتد بطول الأمد، ولكن القدر

لن يسعفه إلى ذلك الحد. لذا عليه أن يرضى بقليل القليل.. عليه أن يرضى باللحظة التي تساوي عمره كله.

وعندما أسند جسده إلى باب الحجرة الرئيسية المقفل إلكترونيًّا، بدت له النهاية جليّة.. لقد أخفق. ولكن في اللحظة التالية، انفتحت أبواب الأمل له مع انفراج شقي الباب.. ووجد نفسه فجأة أمام عينيها.. لقد كانت هي!

هي من فتحت له الباب، كأنما أبت روحها مفارقة الحياة من دون لحظة بجواره.

وبكل ما تبقى من طاقة في جسدها، ألقت بنفسها بين ذراعيه المنهكين، فسقطا معا على الأرض بجوار أجساد زملائها الخاوية.

وجَّه وجهه شطرها بصعوبة بالغة، وحدقت عيناه الذابلة في صمت بوجهها، الذي لاح عليه شبح ابتسامة، ثُم إلى عينيها التي لمح طرف بصرها الآفل على شاشة المتابعة مشهد (كمال)، وهو يجثو أمام جثتي جاريه.

* * *

"لا أستطيع التنفس.. لا أستطيع ال.. ت.. نف.. س!"

همس (عزيز) بصعوبة وسط شهقاته، فما كان من (كمال) إلا أن توقف وقد شعر بعدم جدوى الأمر. أرقد جاريه على ظهريهما برفق، ثُم جثا على ركبيته أمامهما، ونفسه تضيق به .. لقد أحب (عزيز).

قال (عزيز) له بنفس الصوت الهامس الشاهق:

-"(كمال).."

كان يحاول النظر بطرف عينيه إلى زوجته ولكنه عجز. أما (كمال) فقد أتم نظرة جاره بدلًا منه، فوجدها متراخية كجثة هامدة .. بل أصبحت جثة بالفعل.

قال بحزن:

-"لقد توفيت"

لم يبد على (عزيز) تأثر عنيف كما كان من قبل، وكأنه قد ارتضى لروحه السلام ما دامت ستلحق بها. فقال بنفس الصوت ولكن بهدوء ينافي طبيعة الموقف:

-"أشكرك.. لقد حاولت.."

قال له (كمال) ببطء، بينما ينظر إليه باعتزاز:

-"(عزيز).. أنا.."

تراخى جسد (عزيز) فجأة.. لقد أسلم روحه إلى بارئها. ولكن ذلك لم يمنع (كمال) من الإتمام في قنوط، بينما يغلق جفني صديقه برفق على عينيه المتحجرة:

-"أنا آليّ"

-6-

لقد انتهى الإنسان. الأمر الذي لم يتوقعه في أسوأ كوابيسه قد حدث.. وبأغرب طريقة غير متوقعة.

لكنها الحياة كما تعلمت على يديه .. لكل شيء نهاية.. هذه هي الحقيقة.. هذا هو الواقع.

عندما أسير في الشوارع الصامتة المرصوفة بالجثث، مُتطلعًا إلى سماء الليل المتأنقة، والتي حوت مصيبة الإنسان الكبرى منذ أيام قليلة.. أرى أن الإنسان قد مات نعم.. ولكنه سيظل خالدًا.

لقد استحق الإنسان – رغم كل شيء– منزلة أرقى من منزلة النجوم التي أراها لامعة أمامي في ليل الفضاء الرحب..

ربما أخطأ كثيرًا .. بل وربما فعل الكثير من الحماقات كذلك.. ولكنه مُبدع خلّاق.. وهذا يغفر له الكثير.

أما الآن، عندما أعيد التفكير في الهدف الحقيقيّ الذي صنعني له الإنسان.. أرى أنه كان سببًا غيبيًّا.. لم يكن يعلمه وربما لم يكن ليفعل.. لقد كان أعمق من أن تصرّح به ذاته المعقدة له: ربما صنعني الإنسان لأكون خليفةً له.. فمن يدري؟!

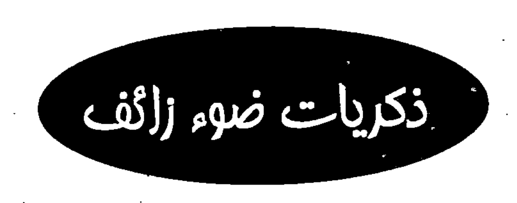
لقد كُنتُ لكم أيها البشر مُجرد حلم آخرَ من أحلام الكمال.. لذا كل ما أملك فعله هو أن أعد..

أعدك يا بني آدم بأنني سأكون خير خليفة لك.

لقد صنعتني مقتبسًا ذرة ضئيلة من الإبداع الإلهيّ. ومنحتني

هيئتك التي تُعلن انتمائي إليك وانتماءك إليّ..

لذا لن أخذلك.. لن أخذلك.


ذكريات ضوء زائف

الموجة الأولى: القمة

عبر الفضاء.

تستمر دفقة جُسيمات "الضوء الزائف" الحاوية لجسدي في انطلاقتها عبر الفضاء.. وأنا معها أو خلفها أو حتى أمامها! لم أعد أعلم.. ولكن لا يزال شعور فقدان السيطرة على مكونات ذاتي حاضرًا قويًّا.

فمع كل ثانية ضوئية تمر عليّ، أشعر بحدود إدراكي تتسع كبالون كونيّ، حتى أكاد أشعر بآخر ذرة من عقلي هناك.. منبسطة بعيدًا في أفق الفضاء اللا-مرئيّ..

الحقيقة أنني ما زلتُ عاجزًا عن إدراك هل أنا تجريد ذاتيّ لجسد فقد ماديته أم أن جسدي -الذي لا وزن له- ما زال هنا في "مكان" ما (حولي)..

بسرعتي التي تنافس سرعة الضوء أشق طريقي في الفضاء الذي

صرت أألفه ويألفني.. بل ونتبادل الأسرار باستمرار ودون أيّة تحفظات. لقد صارت أخباره ومفاجآته تصب في كياني في النهاية.. مهما كانت بعيدة.

لو كان الفضاء قرصًا رقميًا، لكُنتُ الشعاع الذي يقرؤه!

إن وصف كلمة "الوعي" في حالتي لهو ظالم حقًّا. فالأجدر أن أقول: هناك "وعيان" لي. كأن تنظر عبر عيني منظار، لكل عين منهما البُعد البؤري الخاص بها.. لذا فالنتيجة ستكون سيئة للغاية بالنسبة لشخص في الحالة العادية وليس في حالتي.

لقد أصبحتُ مُنسجمًا تمامًا مع الوعيين. فها هو الوعي الأول يعبّر عن ذاته بطلاقته المعهودة بينما الآخر يرى ...

* * *

الموجة الثانية: القمة

تستيقظ في الصباح الباكر وفي ذهنك مهمة شاقة ستقوم بها اليوم.. مهمة تساوي حياتك كلها..

هذا الشعور المُثقل بالمسؤولية لهو مهُلك لأي شخص حقًا. فتشعر بجسدك ثقيلًا ككوكب، وعظامك مُحطمة كغبار كوني، وأطرافك مشلولة كروبوت توقف برنامجه عن العمل. حتى العرق الذي يتفصد جسدك كله، يبدو كما لو أنَّه ينفذ من روحك ذاتها، حاملًا مُخلفات احتراقها الداخلي.

كان هذا هو شعوري بينما أعتدل على سريري.. ولكنه لم يكُن بقوَّة مرَّتي الأولى بالطبع. فالاعتياد يساعد كثيرًا على إخماد تلك النيران الداخلية.. بل والسيطرة عليها أيضًا. لقد تعودت ذلك الشعور منذ زمن بعيد، خاصة في مهنتي هذه.

هززتُ رأسي في عُنف نافضًا بقايا كابوس الليلة السابقة، ثُم

تطلعتُ إلى مفردات محطة البدايـة لمغـامرة جديـدة أتـوق إليهـا منـذ زمن: أثاث الغرفة - سكونـها المُريح - رائحة النوم المكتومة تجـوس بها رغم كفاءة أجهزة تدوير الهواء.

وكصباح كـل يـوم مـن تلـك الأيـام العـصيبة، تحسـست يـدي السرير بجواري باحثةً عنها. فلم يُلامسها سوى موضعها البارد.

كانت بجوارك لكنك كُنتَ بعيـدًا.. كانـت لـك لكنـك لم تكـن لها.. كانت معك لكنك لم تكن معها..

طردتُ الذكرى السخيفة مـن عقلـي سـريعًا، بينمـا أثـب مـن السرير بنشاط مُبالغ؛ لتنشيط دورتي الدمويّة الناعسة..

الروتين اليومي: بعـض التمـارين الرياضـية — تمـارين ضـبط النفس — الإفطار الخـاص بـالرحلات الفضائية: سـائل الطاقـة عـبر محقن وريدي خاص.

ثُم في النهاية: خروجي من المنزل — قطع المسافة بـين المنـزل ومركز الأبحاث الفضائية راجلًا. فهكذا يوصي الخبراء كمـا تعلمنـا؛ لأن ذلك —على حد قولهم— يساعد على طرد الأفكار السلبيّة وتنـشيط

التفكير الإيجابي..

ولكن متى كان كلام الخبراء صحيحًا مائة بالمائة؟

تنفس يا عزيزي.. تنفس بقوَّة.. بعُمق.. وتمعّن جيدًا في كل ما حولك وكل من حولك.. تمعَّن في الأشكال والألوان والأصوات.. والروائح.. تلقَّ نسيم الصباح بنفس مُنتعشة مُتفتحة.. (عِش) في كل ما حولك.. أشبع حواسك المُتعطشة بعالمك إلى آخر قطرة. ربما هذه ساعاتك الأخيرة!

بينما تُربت أقدامي على رصيف الشارع الواسع، ويتجرع أنفي النسيم العطر، وتلتهم عيناي خُضرة الحدائق الباذخة، وحركة السيارات المُنطلقة في منظومة دقيقة عبر مُعالجات مرورية مُحكمة، كان على بعض الأفكار السلبية أن تُطاردني، حاملةً معها كابوس الليلة السابقة. ذلك الكابوس الذي انمحى تقريبًا من عقلي الواعي، فلا أكاد أذكر منه إلّا فتات، لا يصلح لتكوين صورة نصف واضحة حتى..

- قالوا عن تحميل البشر على حِزم من الجسيمات والسفر

بسرعة الضوء– قالوا إنها الحل الوحيد لاستكشاف الفضاء البعيد بعد فشل عملية التحميل على الضوء العادي – قالوا عن جسم غريب ظهر خارج المجموعة الشمسيّة – قالوا إن هذه ستكون أول تجربة واقعيّة خارج المعمل لنظام النقل هذا –قالوا أشياء كثيرة في الواقع حتى أصابني الملل من ثرثرة العلماء هذه.

من المدهش أنني لا أستوعب كيف انسجمت طبيعتي يومًا مع دراستي للكون كرجل فضاء. لقد كشَّرت طبيعتي الأصلية عن أنيابها بعد انتهائي من مرحلة الدراسة، ودخولي مرحلة المهام الفعليّة. أحيانًا أنسى أنني رائد فضاء، وأتعايش مع كوني رجل "مُغامرات" أكثر.

قالوا كل شيء عن كل شيء ونسوا –أو تناسوا– أن يقولوا شيئًا عني، كما لو أنني مُجرد كيس نفايات نووية يستعدون لطرده في الفضاء الرحب!

ولكن لماذا يقولون؟! وماذا يقولون؟! ألم أكن أنا من وافق على دخول الترشيحات لهذه المهمة في البداية وكُلّي أمل أن أنالها.. حتى فعلت؟!

قل بالله عليك.. ألا تستحق التجربة؟ أن تصير بلا وزن ولو لساعات معدودة.. أن تتجرد من الحدود الماديّة لجسدك وتتحرر إلى قبس من الأبديّة.. ألا يستحق هذا الشعور بضعة تضحيات نفسيّة؟!.. ألا يستحق بعض القلق في البداية؟!

لا بد أن تُسدد لماديّتك حقها كاملاً قبل أن تنعم بذلك الحلُم الجميل.. الذي لا وزن له!

هكذا حدثتني نفسي، بينما أقطع المسافة القصيرة المُتبقية إلى بوّابة المركز الشبيه بكرة كريستالية عملاقة.

وبينما أعبر الحلقة الأمنيّة المحيطة به، كانت نفسي لا تزال تلعب معي تلك اللعبة الأزلية: لعبة القط والفأر.

* * *

"الرائد سليمان.."

دوى الصوت الإلكترونيّ السخيف، بينما أعبر باب قاعة الإطلاق.

قاعة الإطلاق: قاعة أسطوانيّة واسعة. مُتراص بها أجهزة

التحكم وبرمجـة حُلـة الإطـلاق. وفي منتـصفها قـرص متوسـط القُطـر يرتفع مستوى أرضه عـن مـستوى أرض القاعـة ببـضعة سـنتيمترات كمسرح صـغير في منتـصف القاعـة. سـقف القاعـة الـشاهق الارتفـاع مصنوع من مادة خاصة شفافة، وسطحه مُحدب كعدسة.

هذا هو التعريف الخاص للمكان بطريقة الموسوعات الرقميّة.

بأنفــاس عميقــة عــبرتُ القاعــة، فــاخترق أنفــي عبــق الإلكترونيــات. حييــتُ فريــق الإطــلاق ســريعًا، فجــاوبني الكــل بهمهمات كثيرة هي نُسخة واحدة من عبارة:

-"حظًّا مُوفقًا".

ولكم أحتاجها بالفعل!

بحثــتُ بعــيني عــن صـديقي "أشـرف" -المُـشرف العـام علـى التجربة-، فوجدته مُقبلًا وهو يقول:

-"المُدير يُريدك.."

للأسف أنا أعلم لِمَ يُريدني، لذا أجبته على الفور:

-"أين؟"

بدأ يتحرك بالفعل، وهو يقول:

-"في مكتبي.."

بينما أتبعه إلى باب مكتبه الدائري في الطرف المُقابل للقاعة.

* * *

انشق الباب إلى أربعة أرباع، ذهب كل منها إلى داخل جزء الشِّق المُجاور له، كاشفًا أمامنا المكتب.

ودلفنا، حيثُ اتجه "أشرف" إلى رأس المكتب، بينما جلستُ أنا أمام المُدير الذي كان ينتظرنا جالسًا على أحد المقاعد الوثيرة في الركن المُقابل للمكتب.

تطلع المُدير إليّ لحظة في صمت -لم أفهم مغزاها-، ثُم قال:

-"أتمنى لك السلامة والتوفيق في هذه الرحلة.. لا تقلق فكل شيء على ما يُرام..

أريد أن أسترجع معك بعض الحقائق عن الرحلة وبرنامج

أعمالك إذا تمت الرحلة بسلام إن شاء الله.."

بلا كلام، أومأت برأسي في فهم.

هُنا ضغط "أشرف" زر جهاز الهولوجرام..

قال المُدير بصوته الهادئ بينما تخفت إضاءة المكتب، ويُقبل علينا "أشرف":

-"هذا هو "الجسم الفضائيّ" محطة الوصول.. "القرنفلة-388".. كما تعلم.. هذا مُجرد تصور تخيّلي بناءً على صور أقمار الرصد.. وتحليل الـ(سبكتروسكوب)*.. الذي أدهشنا بحق.."

بينما يتحدث، تكوّن الهولوجرام الخاص بالجسم كما رأيته من قبل عشرات المرّات. كان لونه ورديًا غامقا، وحجمه صغيرا. صغر من حجم كويكب متوسط من حزام الكويكبات الرئيسي* كما ذكرت التقارير..

---

* السبكتروسكوب: جهاز تحليل الطيف الضوئيّ. ويُستخدم في الرصد الفضائي.

** حزام الكويكبات الرئيسي : هو عبارة عن حزام من الكويكبات والصخور. يقع بين مداري المريخ والمُشترى.

"فعلى الرغم من أن حجم هذا الجسم يجعله يقع تحت تصنيف الكويكبات.. إلّا أن وجوده خارج المجموعة الشمسيّة بلا مدار مُحدد.. مقرونًا بتحليل طيفه يؤكدان أنه ليس كذلك!.. بل لنكون أدق.. ليس له مثيل في كل ما درسناه عن الأجسام السماويّة!"

ولذا كانت رحلتي..

-"ولذا كانت رحلتك.."

قالها المُدير كأنما يقرأ أفكاري. ثُم أكمل على الفور:

-"المطلوب منك هناك:

أولًا: تسجيل مقاطع فيديوية لكل ما ترى أمامك.. ثانيًا: استخدام المجسّات الميكروسكوبيّة والحاسوب لتحليل تربته.. ثالثًا: أخذ مجموعة كافية من العينات.. على ألّا تطول مدة الاستشكاف عن ست ساعات.."

كنت قد درست -بل حفظت- كل ما قاله مسبقًا، لذا لم أجد أي داع لهذا. وكأنني تلميذ تسترجع أمه بعض الدروس معه قبل الذهاب للامتحان!

ولكن من يعمل في مهنتنا يعلم جيدًا أن هذه الجلسة أمر لا بد منه.. بل ومُتعارف عليها أكاديميًّا من أجل وضع الرائد في "جو" المُهمة.. هذه هي "جلسة التلقين" كما كُنَّا نسميها مازحين قديمًا.

أكمل "أشرف" كلام المدير:

-"بالنسبة إليك.. الرحلة لن تستغرق أي زمن.. لأن المُسافر بسرعة الضوء لا يشعر بالزمن كما تعلم.. لذا -طبقًا لتجاربنا- من المفترض أنك لن تشعر بشيء.. ولن تستعيد وعيك إلّا بعد التجسد هُناك.."

لا.. بل دعني أتمنى أن أشعر بتلك الساعات المُدهشة يا "أشرف".. على أن يكون شعوري طيبًا.. وليس.. بشعًا..

"أما إذا قسنا مُدة الرحلة بالنسبة لزمننا العام.. فإنها تستغرق ستة عشر ساعة ذهابًا.. ومثلها إيابًا.."

تطلع "أشرف" إليّ لحظة وابتسم. إنه يعلم طباعي جيدًا، ويعلم أنني أريد الخروج حالًا من مصيدة الملل هذه بأسرع ما يُمكن. ولكن هذا لم يمنعه من استكمال أجندته، وإتمام حديثه - على

سبيل الساديّة:

-"طبعًا وصف (الشعاع الناقل) كما نُسميه مُجرد وصف مجازيّ.. فالنقل لا يتم عبر شعاع له بداية ونهاية.. بل يعتمد على الحلُة التي درستها وتمرنتَ على استخدامها.. هذه الحلُة تتحول مع الشخص الذي يرتديها إلى دفقة كبيرة من الجسيمات الموجهة مُسبقًا عبر برنامج خاص داخل كمبيوتر الحلُّة.. تلك الجسيمات التي تنطلق دفقاتها بسرعة الضوء.. لذا أسميناها: (الضوء الزائف).."

بينما كُنتُ أنشط معلوماتي – على سبيل كسر الملل – تراجع "أشرف" في مقعده، وقال بصوت مُنخفض بعض الشيء:

-"لا بد أيضًا أن أذكرك بمخاطر هذه التجربة التي وافقتَ عليها.. فعلى الرغم من معايير الأمان الخاصة بالحلُة.. إلّا أننا لا نعلم ما نوعيّة الأخطاء التي يُمكن أن تحدُث.. وما نتائجها..

لقد قُمنا بتجربة الأمر على الآلات والحيوانات وحتى البشر داخل المعمل وتم الأمر بنجاح.. ولكن التجارب المعمليّة تختلف عن

التجارب الواقعية في بعض الأحيان.."

بل قُل: في كثير من الأحيان!

"لذا كان لا بد من المرحلة التالية.. هذه المُهمة البسيطة مُناسبة جدًّا لتحقيق هدفنا من التجربة.. فالمسافة ليست بالقصيرة جدًّا ولا الطويلة جدًّا على المقياس الكونيّ العام.."

وكأنك لا تعي ما أنت مُقدم عليه!

تمعنتُ في هذه الخاطرة للحظة، وهالني خلالها كم هي صحيحة..

نعم، أعتقد أنني لا أعي جيدًا ما أنا مُقدم عليه.. أو هي روح المُغامرة التي غلبتني كما هي العادة..

ماذا أصابك؟! هل ستجبُن الآن؟!

مزيد من ساديّة السيد "أشرف":

-"ولكن عمومًا.. لقد قُمنا باختيار أأمن وأقصر مسار مُمكن لك.. وقُمنا ببرمجة كمبيوتر الحلّة به.. لذا لا يوجد عليك أعباء

خاصة في تحديد المسار واختيار الإحداثيات.. حتى موضوع العوائق في الطريق لن تمثل مشكلة.. لأن الجسيمات لها القدرة على النفاذ من الأجسام المادّية دون أن تفقد قوتها أو تركيبها.. فهي جسيمات شبحيّة.. كما كانوا يقولون قديمًا على النيوترينو *.."

جسيمات شبحية؟! إذن أنا الرائد الشبح!.. أو الذي سيصير شبحًا بعد قليل!

أخيرًا، أنقذني المُدير. حيثُ نهض مُصافحًا إياي، وهو يقول:

-"بالتوفيق لك يا رائد "سليمان".. قلوبنا معك.. وبإذن الله نحتفل بنجاح التجربة بعد عودتك سالمًا.."

أومأتُ مُرددًا بصوت خشن بعض الشيء:

-"إن شاء الله.."

بينما يمنحني وجهه الصارم ابتسامة مُشجعة قلّما رأيته بها.

* * *

*النيوترينو: هو جُسيم أولي من مكونات الكون. ويُقال إن في اللحظة الواحدة، يخترق جسد الإنسان أكثر من خمسين تريليون نيوترينو.

الموجة الثانية: القاع

انتبه!

سرت الكلمة ومعها الشعور في عقلي فجأة، فانتبهت. وكان الوضع كالتالي: أنا -مُرتديًا الحُلّة- واقفٌ على المنصة الدائرية، وحولي يتحرك الطاقم بنشاط.. منهم من يُراجع برمجة الحاسوب، ومنهم من يتحقق من إحكام الخوذة.. ومنهم.. ومنهم..

كان هذا هو الوضع الذي أفقتُ فجأة، لأجد نفسي فيه. لقد غاب عقلي عن الإدراك الفعلي لمجريات الأمور لدقائق. كأنما هي عمليّة "إعادة تشغيل" خاصة لكهرباء خلاياي العصبيّة.

أعتقد أنني فعلتُ الكثير خلال هذه الدقائق. وهكذا دار في عقلي شريط الأحداث الأخيرة بصعوبة غريبة: أذكر أنني ودعتُ الأصدقاء والزُملاء، وعلّق (أحمد) بسخافته المُعتادة:

-"عُد إلينا بسرعة.. كسرعة الضوء مثلًا!"

بعدها، أُخضِعتُ لفحص طبي سريع للتأكد من حالتي النفسية

والجسديّة العامة. وأخيرًا عاونني طاقم الإطلاق على ارتداء الحُلة.

الآن، منحتني رؤية الطاقم من داخل الخوذة -وكل منهم يعبث بشيء حولي في أكثر من اتجاه- شعورًا عجيبًا بأن الزمن يتسارع وأن العالم كله يلهث خلف دقات قلبي في شراسة..

هل أنا خائف؟ لا أعتقد.. أو ربما كثرة تجاربي قد غيَّرت طعم الخوف في قلبي.. فصار بهذه الصورة..

هل أنا قلق؟ أعتقد ذلك..

ولكن المشكلة أن تذوق الأحاسيس في تلك اللحظات يكون مُعتلًا.. فلا تكاد تُفرق بين الخوف والقلق..

لا تشرُد.. لا تشرُد..

بالفعل هذا ليس وقتًا مناسبًا للشرود، لسبب بسيط أن العد التنازلي قصير.. وأنه سيبدأ قريبًا.. قريبًا جدًّا.

لا بد أن تُسدد لماديّتك حقها كاملًا قبل أن تنعم بالحُلم الجميل..

بالفعل، لقد أفرز جسدي كل ذرة توتر تسمح بها روح مُغامر

مثلي، حتى بدا أن الوقت قد حان لِلتجرُّد من أيّة ماديّة!.. إلى الحلم الذي لا وزن له..

لا تشرُد..!

عبر خوذتي، رأيت الفريق كله يلتف حولي.. يقفون في ثبات كأنما يشيعون جنازتي. ثُم سرت بينهم موجات التلويح لي.. مع ابتسامات من المُفترض أنها مُطمئنة..

"إلى اللقاء.."

أم نقُول "وداعًا"؟!

وسط كل هذا، برز وجهها في خيالي كطيف حُلم يعبر أمامي عقلي للحظة. بعينيها الدامعتين، ووجهها الشاحب في خليط من المرارة والغضب واليأس، وهي تقول:

-"لطالما كُنتَ أنانيًّا.. وستظل كذلك!.."

"بدأ العد التنازلي.."

قالها الصوت الآلي السخيف من مكان ما، بينما تُصدر الحلّة هديرًا خافتًا، لا يلبث أن يعلو بالتدريج..

5: "وصول أول رائد فضاء يسافر بسرعة الضوء إلى أطراف المجموعة الشمسية.."

4: "عبَّر الرائد عن سعادته البالغة بالوصول سالمًا من الرحلة المُدهشة.."

3: "لقد تحقق في الرائد سليمان الحُلم الذي طالما حلم به العُلماء.."

2: "سوف يذكر التاريخ (سُليمان) كأول بشريّ يسافر بسرعة الضوء.."

1: تبخَّرت الأحلام من أمامي.. ووجدتُ كياني كله يتعلق بهذا الرقم.. حتى شعرتُ بأن كل حياتي هي 1.. بل إنني تجردتُ من كل ما يمُيزني كإنسان وصرتُ (مُجرَّد) رقم 1..!

* * *

0______________!

ص ف ر – أن ب وب – ض وء – ب ي ا ض – أ ن ا – م ا ذا –

* * *

الموجة الأولى: القاع

شموسٌ تولد.. وشموسٌ تموت.. ثقوب سوداء تتسع.. وأخرى تـنكمش وتنحـسر.. كواكـب تنـشأ.. وكواكـب تنهـار.. حـضارات تتناقلها النجوم.. وتُخلِّد أسماءهـا في سـرداب الوجـود.. وحضارات تتلقفها تروس الدمار.. ولا تجد لها مثوى سوى النار..

أعتقد أنني رأيت كل شيء مُمكن في رحلتي هذه. رأيت الوجه المُشرق للكون في نفحات ضـوء نجومـه، كمـا رأيـتُ وجهـه البـشع في سواد ثقوبه، وتيه ممرّاته الدوديّة.

وعلى الرغم من كُل ما رأيت.. مـا زلـتُ حتـى لا أفهـم الآليـة الدقيقة لما رأيت..

في بداية الأمر، أذكر مرور وقت عليّ ربما كـان طويلًـا، كُنـتُ خلاله كطفل يتعلم الأبجديّة لأول مرّة في حياته، حتـى إنـه يتعلـثم في مُجرد نُطق اسمه. فلقد ظللتُ فترة تائهًـا بـين كلمـات كُنـتُ أدرك

معناها، ولكنها ظلت كحُلم شروق صيفيّ وسط ليل الفضاء الأبديّ بلا مواسم. وكأن القدر كان يمحو من ذهني أبجديتنا الأرضية؛ ليُعلمني بعدها الأبجديّة الحقيقية: أبجديّة الكون.

كُنتُ وقتها قد نسيت ماذا تعني الكلمات.. بل ماذا تعني ظاهرة "التواجد" ذاتها كعنصر طبيعي لكائن من المفترض أنه حيّ!

حتى تلك المشاهد التي كُنتُ أراها؛ في البداية لم أستطع التمييز بين وجودها ووجودي. فبالنسبة لحالة الوعي البدائية التي كُنتُ عليها.. كنتُ أنا هي وهي أنا!

على أنني -بعد فترة- بدأتُ في "تجميع" الكلام مرّة أخرى. واستغرقتُ وقتًا لا بأس به في استيعاب عمليّة الفصل بين وعيي الخاص وإدراكي بذاتي، وبين ما أرى أو أدرك من أحداث في أعماق الكون. تلك الظاهرة الغرائبية التي أحاول فهمها إلى الآن.

وصفها؟.. حسنًا.. فلأحاول وصفها بصورة واضحة لنفسي (فكما يقولون دائمًا إن بداية حل أيّة مشكلة تكمن في الاعتراف بها وتحديدها على الصعيد العلمي والعملي). وقتها أشعر بمسّ غريب في

ذبذبة وجودي؛ شعور قد يُشبه تلقي المرء زخة من الماء الدافئ وسط بحر من الماء البارد، شعور بتواجد شيء "دخيل" عليك؛ شيء لا ينتمي إليك.. ولكنك قد تنتمي إليه يومًا..

ثُم ذلك الإحساس بأن جزءًا من كياني يسافر مع شعاع الضوء الحامل للحدث الكونيّ إلى مكان هذا الحدث، حتى أكاد أشعر أنني (هُناك) بالفعل!

ولأن هذه الظاهرة مستمرة حتى هذه اللحظة، لذا أشعر بكياني وقد صارت له ملايين الأجزاء المُبعثرة في أنحاء الكون.

يقولون إن المُسافر بسرعة الضوء لا يشعر بالزمن.. ربما هذا صحيح نظريًا. أما على مستوى تجربتي الشخصيّة: فلا.. فما زلتُ أشعر بتيار الزمن المُمتد يُحركني إلى الأمام. لا بد من وجود زمن خاص بي (لأشعر) فيه بما أشعر الآن!

- كل هذا ينساب بسلاسة على أحد سطحي وعيي الشفاف كغشاء رقيق، بينما على السطح الآخر تتدفق شلالات الصور والأحداث والمعلومات التي تتدفق على كياني بلا انقطاع.. أما عقلي فينتقل بين السطحين/الوعيين بمرونة عجيبة، ودونما عناء.

أخيرًا، ظهرت "القُرنفلة". كان كما تخيّل مصممونا بصورة أو بأخرى. كان لونه ورديًا غامقا. بالإضافة إلى سطحه شديد التعرُّج، الذي بدا واضحًا من خلال غلاف غازي رقيق يُحيط به.. مما جعله أشبه بكوكب.

كان محطتي في هذه الرحلة الضوئيّة العجيبة.

* * *

لا بد أن عمليّة الهبوط قد اقتربت.. انتظرتُ عملية التجسُّد في صبر..

انتظرتُ.. ولم يحدث شيء..

انتظرتُ.. ولا شيء..

ماذا حدث؟!

أشعر أنني على وشك اختراق سطحه. ولا بد أن كمبيوتر الخوذة "في مكان ما" حولي.. ولكنني لن أستطيع فعل شيء؛ فأنا والحُلّة وحتى الحاسوب في حالة من انعدام المادية التي تجعلني لا أستطيع التعامل مع أي شيء مادي!

مهلًا..

هذا الجسم!.. إنه..

* * *

الموجة الأخيرة: القمة

دائمًا ما يحلُم البشر بتلك اللحظة الفارقة التي تُغير مسار حياتهم إلى الأفضل. هذا هو حُلم الفقير.. حُلم التعيس.. حُلم المظلوم..

ولكن الحلُم -الذي أراه واقعًا أمامي- كان أشمل من أيّ حُلم سمعت به. إنه حلم يتجاوز كل المآسي الحياتيّة إلى شيء أعمق بكثير، إلى تغيير شامل في منظور تفكير حضارة بأكملها.

فما أشهده الآن يُعد شرخًا نافذًا في جدار كل مألوف.

أن تجد نفسك -التي لا وزن لها- فجأة داخل عقل كائن حي في فضاء مُترامي الأطراف.. هذا شيء يدعو للدهشة. أما أن تعلم أن

ذلك الكائن الحي هو ذاته الجسم الذي تخترقه الآن.. هذا شيء أقل ما يدعو إليه هو الصدمة!

لم يكن هذا الجسم الفضائيّ سوى كائن حي!

كرة عملاقة من نسيج حيّ. نسيج تحدى برودة الفضاء وقسوته. وانتصرت فيه الحياة على كل ما يحمل الفضاء من كوارث ومصائب..

(هو) لا يعرف كيف نشأ هكذا.. ولا متى. ولكن عقله البدائيّ استيقظ فجأة ليجد نفسه وحيدًا وسط فضاء لا يرحم. لقد مضى عقله البدائيّ المُتوحِّد قُدمًا في طريق النضوج ببطء وبلا تعجُّل. بدائيته اختلفت كثيرًا عن بدائية البشر. فبينما كان الإنسان البدائي يُصارع أقرانه من أجل قطعة لحم، كان طعامه يتسرب إليه بهدوء من الإشعاعات الكونيّة المُختلفة. أنسجته استطاعت الاستفادة من تلك الأشعة والحصول على الطاقة منها.. ليست طاقة تدميريّة، بل طاقة خلّاقة كافية لإبقاء الحياة في قلب جسده الفريد.

لقد استطاع التنفس في فضاء لا يسمح بذلك.. هذه هي مُعجزته

الشخصية.

(هو) لا يحتاج إلى قلب ينبض، ولا إلى دم يُضخ. فلقد اكتفى جسده بقليل القليل من المصادر الكونية المُتاحة.

وبالرغم من عجز عقله البدائيّ عن التفكير المُعقد، نشأت بعقله قدرة خاصة جدًّا، ما زال البشر على الأرض يحاولون إيجاد مفتاحها إلى اليوم. فمقدرته على التخاطر العقليّ تُعد تناقضًا عجيبًا في مفهوم البشر عن التطوّر.

يجوب أنحاء الفضاء مدفوعًا بقوانينه التي تسري على كل شيء بلا استثناءات.. بـ(شيء) سوف يُدرك معناه فيما بعد، (شيء) يُدعى الأمل. على طرقات الكون المُعقدة يشرُد، بينما عقله البدائيّ لا يزال يجاهد من أجل الإلمام والتمكن من قدراته العقليّة.. كان – غريزيًّا– وعلى الرغم من كل ما هو فيه يسعى نحو نفس ما نسعى إليه، نحو التطوّر والرُقي.

ربما كان خليّة واحدة يومًا. خلية واحدة من كائن عاقل أو حتى غير عاقل – وصلت الفضاء بطريق الخطأ، ثُم في ظروف مواتية، عبر طفرات عجيبة بكل ما يعج به الفضاء من مُتغيرات، حدث ما

حدث. ربما كان فردًا من سُلالة نادرة، نشأت في مكان ما من كوننا الغامض، ثُم أدت كارثة ما إلى بعثرة هذه السلاسة في أنحاء الكون المختلفة.. أو ربما حتى كان قادمًا من كون آخر عبر فجوة كونية ما..

ربما.. ربما.. هُنا تنفتح أقواس الاحتماليّة إلى ما لا نهاية.. إلى نهاية الأبديّة ذاتها.

التساؤل الأهم هُنا هو: كيف لم يستطع أحد اقتحام عقله كما فعلتُ أنا؟ أكانت موجاته العقلية غير مألوفة بالنسبة لكل الحضارات التي مرّ بها طوال تاريخه الغامض؟! هذا هو التفسير الوحيد المُتاح لي.

ولكم أتمنى لو استطعتُ إفهامه مدى شفقتي عليه وتعاطفي معه. ولكنني لا أعرف حتى كيف أفعل.. ربما فعلتُ دون أن أدري!

إذا كان هناك معنى للوقت في حالتي: (الآن) أخرج من جسده.. وأجد كياني المحمول على حزمة "الضوء الزائف" يطير بعيدًا عن ذلك الرفيق البائس. تاركًا جسده الشارد في الفضاء يبحث عن ذاته الأكثر شرودًا.

* * *

الموجة الأخيرة: القاع

وما زالت رحلتي الغرائبية مُستمرّة نحو أفق لا أراه، ونحو "مستقبل" أجهل معناه.

لقد مررتُ بملايين المواقف الغريبة في رحلتي هذه. وبالرغم من هذا، ما زلتُ أرى الأعجب والأغرب كل "لحظة". ومع كل مشهد، أشعر بنفسي أكثر نضوجًا وعقلي أكثر حكمة.. بينما جسدي: لا جسد إلى حين.

ولكن يظل موقفي مع ذلك الجسم الفضائي الحيّ من أكثر المواقف تأثيرًا في نفسي. إن ذلك إعجاز لا يوصف بكلمات.

أعترف أنني كنتُ شخصًا بغيضًا في حياتي السابقة. شخص أحمق لا يُفكر إلّا في نصره التالي.. ولم يتوقف للحظة من أجل أحبابه، لذا استحققتُ أن تتخلى زوجتي عني في النهاية.

ولكن حياتي السابقة انتهت. ولم تعد أمامي سوى حياة

إجباريّة. كانت مكروهة في البداية، ولكنها الآن مُعتادة، بل شائقة في كثير من الأحيان. هذه فرصة ربما لن تكرر أبدًا لأي شخص.

الموت؟.. لم أعد أفكر فيه.. ربما يأتي عندما تنفد طاقة جهاز توليد الجسيمات.. ربما حين أقع في براثن ثقب أسود يمتصني ويُشتتني.. أو ربما لن يأتي مُطلقًا؛ لظروف لا أعرفها.. ولا أهتم بمعرفتها!

وحتى إذا جاء الموت، سوف أستقبله بصدر رحب. فلقد علمتُ ما لم —وربما لن– يعلمه بشريّ. لقد أصبحتُ أعتبر نفسي من مكونات السماء. كذلك الثقب الأسود، وكتلك المجموعة النجميّة، وذلك المُذنّب هُناك.

فقط كل ما يؤرقني الآن، هو عجزي عن نقل ما عرفتُ لأحد؛ من أجل الاستفادة العامة – أو على الأقل لأجد رسالة سامية أحيا من أجلها. ولكن حتى أنانيتي الاختياريّة سابقًا صارت إجباريّة عليّ حاليًا. لقد علمتُ ولم أُعلِّم أحدًا..

إن المعرفة باهظة الثمن. وأعتقد أنني خير مثال على هذا


إنه القدر

"ذاهب إلى العمل.."

قالها بينما يُغلق سُترته اللامعة في سرعة. فأتت زوجته مُودعةً، وهي تبتسم بآلية:

-"حسنًا.."

ثم أتى خلفها ابنهما ذو الحادية عشرة من العمر يلتصق بجانبها ملوحًا:

-"إلى اللقاء يا أبي"

أعطاهما ابتسامة سريعة جدًّا، من الصعب ملاحظتها. ثُم سلك الطريق القصير خارج باب منزله إلى كابينة الانتقال الآني.

خطفت عيناه نظرة على الجو بالخارج في ذلك الصباح المُشرق من الصيف. ضوء الشمس يتهادى على الأبنية المجاورة، فيمنحها الضوء والطاقة في تحوّله إلى كهرباء عبر الخلايا الشمسيّة الزرقاء العملاقة، والتي تزين أسطح المنازل. في زمن سابق قد تبدو

كمستعمرات فضائيّة من كوكب آخر. أما الشوارع المصقولة كانت خالية. فمن ذا الذي يذهب للتنزه في ذلك الصباح الباكر.

ولكنه لم يلق بالًا لكل هذا. فعقله العملي ليس لديه وقت ولا رفاهية التأمل. فقط التقط الصورة وترك المضمون للمتأملين.

ما إن اقترب من كابينة الانتقال الآني، حتى انشق بابها إلى نصفين، فانفتح كستار معدنيّ، كاشفًا الكابينة البيضاء. دخل إلى الكابينة فالتحم شقيّ الباب خلفه تلقائيًّا.

قال صوت داخلي:

-"من فضلك حدد الوجهة"

كتب بأصابعه الوجهة على لوح كتابة صغير في مواجهة الباب. وسرعان ما دار مُحركٌ يئن بصوتٍ خافت، ثُم خفتت إضاءة السقف البيضاء.. و..

أضيئت الكابينة مرّة أخرى، فشد نفسًا عميقًا بتلقائية مُنتظرًا.

قال الصوت الداخلي:

-"موقع محظور.. من فضلك قُم بتعريف هويتك"

فأجابه سريعًا:

-"رقم 1209.. جواز مرور اليوم.. س903ق589د356.."

-"البصمة النووية.. مُطابقة.. الهويّة مُطابقة.. مرحبًا بك يا سيدي المُدير"

على الفور انفرج شقا الباب. فعبره إلى وجهته؛ كان المكان شديد الاتساع، أشبه بورشة شاسعة مُتطوّرة. الإضاءة الذاتية من الجدران تنعكس على قسمات الوجوه المنهمكة على المكاتب فزادتها جديّة. بينما كان الجزء الآخر من المكان مُقسمًا إلى حجرات يفصلها عن بعضها فواصل زجاجية مُعتمة.

في صمت، تلقى صدره الأنفاس المُعطرة برائحة المكان المُميزة بينما يُلقى نظرات خاطفة على الجميع، مبادلًا إياهم التحية بهزّة رأس. عَبَر سريعًا المر الواقع بين مجموعتي الحجرات، حتى وصل إلى باب مكتبه الخاص.

"سيدي.."

التفت إلى مُحدثه. كان (حازم) خارجًا من باب مكتبه الذي يقع قبل مكتب رئيسه مباشرةً.

-"(حازم).. كيف حالك؟"

-"بخير الحمد لله.. وكيف أنت؟"

-"الحمد لله.. هل هناك جديد؟"

كما تقتضي التعليمات، لم يجبه (حازم) حتى اجتاز مع مديره باب مكتب الأخير المُدمج به أجهزة كشف الهوية فائقة السرعة.

دلفا إلى المكتب الذي أُضيء تلقائيًا، بينما ينبعث صوت هادئ في القاعة:

-"مرحبًا سيادة المدير"

جلس المدير، بينما يشير لنائبه كي يجلس. ثُم بدأ (حازم) الحديث:

-"كل شيء على ما يرام.. عملاؤنا يتعاملون مع جميع

الحالات بنسبة نجاح مئة بالمئة كالعادة.. وستصلنا قوائم الأهداف الجديدة خلال دقيقة.. لتقوم بالتوقيع عليها".

سأله المُدير بنفس النبرة، بينما تلمس أنامله سطح المكتب الزجاجي في هدوء، فتكثّفت دوائر بخاريّة حول مواضعها:

-"وماذا عن تقارير مركز الإحصاء؟.. هل نسبة الوفيات التقريبيّة مُستقرة؟"

هزّ النائب رأسه، وقال:

-"التقارير كلها ممتازة.. من المستحيل أن تخرج الأمور عن السيطرة.. الخطة التي نسير عليها مدروسة بعناية شديدة .. ولا تحتمل هفوة.."

قال المُدير:

-"أعلم.. ولكن الأمور لن تسير على ما يرام للأبد.. لذا لا بد دومًا من اليقظة والحذر.. فأنت تعلم أنه ليس لنا وجود بصفة رسمية.. وفي مهنتنا تلك قد يؤدي خطأ صغير إلى انقلاب المجتمع كلّه ضدنا.."

أيّده النائب، بينما يلوح بيديه كأنما يبعد بهما ذلك الانقلاب المفترض:

-"بالتأكيد.. نحن نعمل تحت وصاية الرئيس ومخابراته الرئاسية.. ولا يعلم بأمرنا سوى معدودين في سُدة الحكم".

لم تُسفر قسمات المُدير عن شيء، عدا أنه مطَّ شفتيه فيما يبدو بالضجر. ولكن النائب كان يعلم أن المظاهر خدّاعة، خاصة مع مُديره. فهو من ذلك النوع شديد العمليّة، والذي يحب متابعة تفاصيل العمل أولًا بأول، دون كلل أو ضجر.

انطلق رنين هادئ من مكتب المُدير، فقال (حازم) الذي وجد فرصة مناسبة لقطع حالة الصمت:

-"القوائم"

نظر كلاهما في صبر إلى التجويف المؤطر بضوء أزرق متقطع، حيث خرجت الورقة الإلكترونيّة التي تحمل قوائم الأهداف اليوميّة. أمسك المُدير بطرف الورقة المُنبثقة، حتى انتهت رحلة خروجها من التجويف، ثُم وضعها على حامل خاص على سطح

المكتب. فتكوّن هولوجرام بما تحمله أمامهما.

طالع المدير ونائبه القوائم في سرعة، بينما يسأل النائب:

-"ألدينا مسؤولون في القائمة؟"

أجابه المُدير هازًّا رأسه في نفي:

-"لن يختلف الأمر.. أنت تعلم أن خياراتنا تتم بعشوائية تامة.. ويتم تنفيذها مهما كان شخص الهدف"

على أنه أمر الحاسوب بترشيح الأسماء؛ لحصر الأهداف من المسؤولين – على سبيل الفضول. دق بأنامله على سطح المكتب، مُنتظرًا النتيجة التي لم تتأخر.

- "مه..

في ذهول مكتوم حدّق كلاهما في قائمة المسؤولين المحصورة. وبالرغم من حرصهما على الحياد التام فيما يتعلّق باختيار الأهداف. إلّا أن ذلك لم يمنع تجهمات الاستنكار البادية على وجهيهما.

فقد كان الهدف المسؤول هو.. المدير.

زفر المُدير ببطء، وهو يتراجع في مقعده، وعيناه لا تزال مُعلقةً على اسمه المحاط بمستطيل أحمر متوهّج، بينما قال نائبه (حازم) في خفوت واجم، وعيناه تلتمعان مُحدقتين به:

-"ماذا ستفعل؟"

حدّق فيه بشرود لدقيقة، بينما عقله يُكرر السؤال..

ماذا ستفعل؟

تنحنح قائلًا:

-"لا شيء.. ما دُمنا واثقين من حيادية وعشوائيّة الاختيار.. لذا عليّ الانصياع للأوامر.. فهو أشبه بأمر عسكري يجب تنفيذه.."

صاح النائب في استنكار:

-"ولكنها حياتك؟! كيف لا تُحرك ساكنًا بينما تعلم أنك ستموت اليوم؟!.. العلم استطاع القضاء على المرض بصورة كبيرة.. هذا رائع.. ولكن لماذا عليك التضحية بنفسك في سبيل ذلك التوازن!"

أشار له مُديره مقاطعًا:

-"لولا أنـك منفعـل لكـان علـيّ اتخـاذ إجـراء آخـر معـك يـا (حازم).. فأنت تعلم جيدًا أن قِسمنا يجب عليه تحقيق التوازن الذي كان يفعله المرض وما فعلته الجرائم والحروب قديمًا.. من دون قسمنا ستتزايد الكثافة السكانية على الكوكب إلى حدود خياليـة.. وسنعود إلى عصور المجاعات مـرّة أخـرى.. كمـا أن استيطان الفـضاء مـا زال خطوة بعيدة نسبيًّا.. لن أكرر الكلام فأنت نائبي وتعلم طبيعة الأمور هنا.."

شد قبضته على سطح المكتب، بينما ملامحه الجادة تلين عند خديه بعض الشيء، فأعطت انعكاسا لمرارة يحـاول إخفاءهـا. أكمـل حديثه صائحًا:

-"لذا افهمني!.. إنني أفعل ذلك ليس لأنني لا أحب حيـاتي أو لأنني لا أخشى المـوت.. ولكـنني أفعلـها لأنهـا ببـساطة.. مـسألة مبدأ.."

أخذ نفسًا عميقًا، ثُم حرّك يديه مُضيفًا:

-"إذا جاملتُ نفسي اليـوم.. سأضـطر إلى مجاملـة شـخص مـا

غدًا.. ثُم شخص آخر فيما بعد.. وسيتراكم الأمر حتى ينهار قسمنا في النهاية.. إنني أفعل ذلك من أجل مستقبل هذا المكان!"

كان منطقه لا يُرد، اعترف (حازم) لنفسه بذلك بينما لا يزال مُحدقًا به وهو يتابع:

-"ثُم إننا قد فعلناها من قبل دون أي توانٍ مع عملائنا وذويهم.. لذا ليس لدينا أيّة أعذار.."

على الرغم من قناعته، أبى (حازم) أن يصمت. وشعر أن عليه ترضية مديره بأيّ قول. لذا صاح بينما حاجباه يرتفعان:

-"ولكنك المُدير!.. أنت صاحب فكرة إنشاء هذا القسم!"

فعاد المُدير يقول ملوحًا بيده:

-"لا تبدأ مرّة أخرى.. أنا صاحب الفكرة لذا يجب أن أكون أوّل من يؤيدها.. أنا مدير القسم لذا عليّ أن أنفذ الأمر ولو على نفسي..

أعلم أن كلامك هذا نابع من انفعالك للأمر أو حتى مجاملة

لي.. وأنا أشكرك على ذلك.. ولكنني هنا أتصرف من أجل الجميع.. لا بد أن يطبق القانون على رأس الهرم قبل قاعدته.."

شملهما الصمت بجناحيه للحظات، بعدها قال (حازم) وعيناه على يد المُدير:

-"كم تبقى لك؟"

ألقى الأخير نظرة على ساعته الرقمية، وعالج لوحة المفاتيح على سطح مكتبه، ثُم نظر إلى الهولوجرام، مما دفع نائبه أن ينظر أيضًا. ثُم قال:

-"لا أدري بالضبط. أنت تعرف أن توزيع المهام على العملاء يتم عشوائيًّا بواسطة الحاسوب.. ولا علم أو دخل لنا به إلّا بعد أن يتم.. ولكن بحسب الترتيب في القائمة أعتقد أن الأمر لن يتم قبل المغرب.."

حاول قدر الإمكان إخفاء الغصة التي طعنت لسانه مع قلبه في الوقت ذاته، وهو يقول العبارة الأخيرة. فقام بتلقائية من مقعده وقد شعر بأنه لا يطيق الجلوس. بدأ يتحرك في المكان ذهابًا وإيابًا، وقال دون أن يواجه نائبه:

-"لذا علي إنهاء الإجراءات سريعًا..

ستتقلد أنت المنصب حتى تنظر المخابرات الرئاسية في أمر جدارتك له.. وستُعلن الأمر للزملاء هنا غدًا.. هذا بالنسبة لك"

ثُم نظر إليه بملامح ثابتة:

-"أما بالنسبة لي الآن.. فسأوقع على القائمة.. بعد ذلك سأجري اتصالًا مع الرئيس ومع مدير المخابرات الرئاسية.. أخبرهما بالأمر.."

وكافح مع نفسه ليُجلس جسده على المقعد ويُتم كلامه، ناظرًا للفراغ:

-".. مع الوداع"

لم يعد هناك ما يُقال. فكّر (حازم) في ذلك بقنوط، بينما يتطلّع لمديره الذي التقط قلمه الإلكترونيّ، وذيّل بتوقيعه الورقة التي تحمل.. نهايته.

* * *

خـرج مـن كابينـة الانتقـال الآنـي، بينما عقلـه في لجّـة مـن الأفكار والذكريات. بعض الأفكـار كانـت غـير مفهومـة ولم يـستطع استشفافها، والبعض الآخـر كـان واضـحًا - إلى حـد مـا. ولكـن أتتـه الذكريات لتلعب بقذارة، ففقـد حاسـة تمييـز مـا كـان سيفكر بـه.. والأشد ألمًا أنه فقد مُتعة ذلك.

فعندما خرج مـن بـاب كابينـة الانتقـال الآنـي، توجّـه عقلـه تلقائيًّا للحظـة الـتي خـرج فيهـا مـن مقـر القسم. حيـثُ أنهـى كـل الإجراءات الخاصة بانتقال المنصب إلى نائبـه بأقـصى سـرعة.. وكـان خواء قلبه عنوانًا لما يفرزه عقله من إرهاصات.

عانقه (حازم) بقوّة، بينما يقول بخفوت:

-"وداعًا يا (محمود).."

فرد عليه بصوت جامد، بينما يربت على ظهره:

-"(حازم).. لقد تركت لك أمانة عليك الحفاظ عليها.. أثبـت لهم جدارتك أيها المدير.. وإياك أن تترك لعواطفك زمام الأمور هنا"

فُضَّ عناقهما، بينما يومئ (حازم) له في فهم. أمّا هـو فـألقى

نظرة أخيرة على المكان، ثُم حمل نظرته مع أفكاره خلفه، وهو يستقل جهاز الانتقال الآني.

وهاهو الآن يقف أمام باب منزله.

ماذا سيقول لهما؟ لا يدري .. سيفكر في الأمر خلال الوقت الباقي له.. أو من الأفضل ألّا يخبرهما بشيء.. فهما لا يعلمان عن عمله سوى أن طبيعته (سري للغاية).

نظر إلى الباب، فتعرّفه الكاشف الأمني المُدمج به، وانفتح تلقائيًا. دلف حيثُ وجد زوجته في مواجهته، وقد تنبهت لتكة الرتاج. نظرت له بعينين متسائلتين بينما تقول:

-"خيرًا؟ ماذا حدث؟"

توجه إلى الأريكة، فرقد عليها فاردًا جسده، وهو يقول:

-"لا شيء.. شعرتُ ببعض التوعك فانصرفت"

جلست على المقعد المواجه للأريكة تنظر له في شك. أما هو فنظر إليها محاولًا الصمود أمام عينيها الكاشفة لمْا يدور في صدره. وقال:

-"كيف حالك؟"

كانت هذه أوّل محاولة للخروج من نطاق الموضوع، وقد باءت بالفشل. كان يود قول شيء أكثر منطقية ولكن ربما لأوّل مرة منذ فترة طويلة، يتواطأ لسانه مع مشاعره المستيقظة ضده شخصيًا.

لنفسه قال حانقًا: يا للفشل!

أما هي فقالت:

-"أنا بخير.. ولكنني بدأت أشك أنك كذلك.. أأتصل بالطبيب؟"

أومأ برأسه وقال:

-"لا.. الأمر لا يستدعي.. ربما هو إرهاق مفاجئ ليس إلّا.."

شخصيًّا شعر أنه غير مُقتنع. وبالفعل صدق شعوره، فقد انحنت إلى الأمام تسأله:

-"هل حدث شيء في العمل؟"

فنظر لها مُغالبًا مشاعره، وقال:

-"لا"

كان هذا أطول حديث تبادلاه منذ فترة. فمنذ تقلّده منصب مدير القسم -الذي سُمي بقسم "التوازن البشري"- تحلى هو بالمزيد من الجمود والعملية. أما هي فكانت منشغلة في كتابة أبحاثها في مجال الفيزياء الحيويّة. وكان رابط صلة الحديث الوحيدة بينهما هو ابنهما (خالد) الذي وهبا كل ما تبقى داخلهما من أحاسيس له.

تذكر عمله الأوّل كرئيس مركز الإحصاء.. ثم إنشاء القسم.. تذكر لقاءهما.. وزواجهما.. ثُم ابنه. شريط حياة قصير أسرعت في عرضه السينما الراكدة داخل عقله للحظات قليلة.. إلى أن قطع العرض صوتها المُتنهد، والذي لم يصف من نبرة الحذر:

-"حسنًا.. إذا أردت أن تتحدث في الأمر.. فأنا موجودة.. سأطلب من الخادمة الآلية تحضير عصير لك.. إذا أردت شيئًا فأنا في المكتب".

لا ليس الآن.. لا ترحلي الآن!

كان يشعر بحاجة مُلحة إلى وجود أحد بجواره. سألها:

-"متى سيأتي (خالد)؟"

فنظرت في الساعة الرقمية المدمجة في الجدار وهي تقول:

-"بعد ساعتين تقريبًا"

أومأ برأسه، بينما تقوم هي من جلستها وتختفي من أمام ناظريه. سمع صوتها تأمر الخادمة، ثُم سمع تكة غلق باب المكتب.. لقد عادت إلى أبحاثها وتركته.. تمامًا كما كان يفعل دومًا.

لفه الصمت والوحدة لوقت شعر أنه أبدي لا ينتهي. رغم أن نظرة منه على الساعة أكدت أنه يمر بسرعة خرافية. عندما يفصلك عن الموت ساعات معدودة، تصبح الدقيقة نفيسة للغاية.. فهي تساوي سنوات طويلة بمقياس العمر الممتد إلى الشيخوخة.

روحه كحفنة ماء في كفيه، تهرب قطراتها بين أصابعه مع كل لحظة. جزء مبهم من كيانه لم يتحسسه قط من قبل- أدرك ذلك الإحساس المُعقد.

مُجرد سويعات تفصلك عن القبر.. عن أن تصير جثة هامدة. مثلك كمثل الأريكة التي تجلس عليها.. لا تحوي شيئًا ولا تقوى

على شيء.

إذا كان شعوره نوعًا من الحدس فلم يكن ذلك ليؤرقه إلى هذا الحد. ولكنه يعلم أن الأمر ليس حدسًا، إنما هو حقيقة ستطبع على صفحة العالم بعد قليل.

حثه ذِكر الجثة الهامدة للاستفاقة على أمر بالغ الغرابة: كان لأول مرّة منذ زمن طويل يشعر بمشاعره! كان قد اعتقد أن سنوات العمل الطويلة على وأد الحيوات قد قتلت ذلك الشعور للأبد. ولكنها على الأقل نجحت في ذلك لفترة ليست بالقصيرة.. والدليل أنه يشعر فقط الآن أنه كائن حيّ!

تُرى كيف سيفعلها عميلهم؟

كان يعلم أن العميل الموكل بالمهمة سيكون خفيًّا تمامًا، حيث يستخدم موجات خاصة تعمل على إيقاف الكهرباء العصبية دفعة واحدة.. سينفذ الأوامر بهدوء بالغ وبلا أيّة آثار مُريبة.. إنهم يفعلونها آلاف المرات يوميًا منذ سنوات.

ألن أتألّم حقًّا كما يرددون؟

نظر إلى الساعة فوجدها الرابعة.. نظر إلى الطاولة الصغيرة بجواره فوجد كوب العصير الذي أحضرته الخادمة الآلية كما هو.

العالم كما هو لم يتغير. أنت من سيتغيّر في آخر اليوم. ستتحول من شخص حي إلى شيء غير حي.

وكما تنبه لعقله الذي خانه وبدأ يطلق أفكارًا غريبة، تنبه أيضًا أن قلبه يضرب الدماء داخل صدره، وكأنه يفعلها الآن فقط.

تساءل: هل كان يتوقع ذلك يوم وضع فكرة القسم؟

نعم .. كنت تعلم احتمالية ذلك ولكنك حسبته بعيدًا عنك.. من رحمة القدر بك أنه جعلك الضحية .. بدلًا من زوجتك أو حتى ابنك! أنت محظوظ رغم كل شيء!

تركته تلك الخواطر المُفاجئة في مزيج متناقض ما بين الراحة واليأس.

شعر بالاختناق، ففتح سحّاب ردائه اللامع كأنه يفتح سجون صدره، ليترك قلبه حرًا طليقًا، يفصح عن مشاعره المكبوتة منذ دهور. بصعوبة وألم في أوصاله، قام من رقدته، فضرب صداع عنيف

مؤخرة رأسه كمطرقة.

إنهاك جسده أنهك روحه أكثر، ثُم انتهى به المقام أمام غرفة النوم.

سمع تكة رتاج باب المنزل، فشعر كأنما قلبه هو الذي انفتح بتلك التكة، ورأى ولده يدخل.

أقبل عليه الصغير مسرعًا، وهو يقول بعينين ملتمعتين:

-"أبي.. لقد عدت مُبكرًا اليوم!"

ترك كل همومه تسقط، بينما يرفع الصبي مُحتضنًا إياه:

-"كيف حالك؟ وما أخبار المدرسة؟"

أجاب ولده، بينما تلفح أنفاسه السريعة وجه أبيه:

-"كل شيء على ما يرام"

طعنت العبارة حالة السعادة المؤقتة المتدفقة في أوصاله. فقد ذكرته بعبارة نائبه (حازم) صباح اليوم.

قال له بينما يجاهد للحفاظ على بسمته:

-"رائع!.. ا.. اذهب لمصافحة والدتك.."

كانت زوجته قد خرجت لمصافحة الصغير، فأنزله، وتركهما دالفًا إلى الغرفة.

فجأة وقف أمام السرير وأمسك معدته، قبل أن ينفجر فمه في شلال قيء عنيف.. تقيأ وتقيأ حتى شعر بروحه تكاد تخرج من فمه.

ثُم بإنهاك ألقى جسده على السرير.

عندما رأت زوجته المشهد، ألجمها الفزع لثوانٍ ثُم لم تلبث أن أسرعت مع ابنها إلى الغرفة، وهي تقول بصوت مضطرب مخطوف:

-"(محمود)! ماذا هناك؟!.."

قال بينما يُغمض عينيه:

-"لا شيء يا (جنان).. لا.."

لم يستطع إتمام العبارة. فبالرغم من معاناته الجسدية لم يكن يشعر سوى بالأرهاق والسلام. كان الإحساس قد بدأ رحلته معه منذ

معرفته بالأمر، وكان يتعاظم مع كل لحظة تمضي.

-"(بيتا).. اطلبي الطبيب!.."

كان قد أغلق عينيه؛ ليغض بصره الحائر في الفراغ مُترقبًا طعنة الموت في أيّة لحظة.. وعندما حاول فتحهما، كانت الرؤية أمامه ضبابية متراقصة. ازدادت قوّة الحزام الصداعيّ المُحيط بدماغه كسوار من أشواك، وتفجرت قنابل صداعيّة أخرى خلف عينيه، التي بدأتا تبكيان دمًا.

-"(بيتا).. أين.. الطبيب.. بالله.. عليكِ؟!.."

ضغط براحتيه على عينيه المتحجرتين النازفتين من الألم، بينما يسمع صوتًا باكيًا يقول شيئًا ما، ولكنه لم يميز. لم يعد قادرًا على تمييز ما يسمعه، فقد علا صوت قلبه ليرج كيانه، وليدق في أذنيه كالطبول. سيقوم (محمود) بقفزة خطيرة الآن: سيقفز من الحياة إلى الموت.

جاهد ليُبعد يديه الداميتين المرتعشتين عن عينيه، ورفع يمينه جواره. عانقت يدها المُبللة بدموعها يده المبللة بالدم، فشعر

بالراحة كأنما كان العناق بمثابة وثيقة صلح؛ بين الدم والدموع، بين اليدين، وبينهما. على صدره المُضطرب - كأنما يقطن داخله وحش مريد - بكى ولده مُنهنهًا:

-"أبييي.."

تحسس الهواء بيسراه حتى وصلت لرأس ابنه، فمسح بها على شعره قائلًا بصوت متحشرج:

-"لا.. تبك.. يا.. حبيبي.."

صرخت زوجته في الخادمة الآلية مرّة أخرى، ولكنه أمسك بيدها بآخر ما تبقى له من قوّة، فقالت من وسط دموعها:

-"لماذا؟ لماذا؟"

بصعوبة شديدة ابتلع ريقه هامسًا:

- "إنه.. القدر.."

قالها بآخر أنفاسه. وحاولت شفتاه الجافتان إضافة شيء، لكن الهواء فقط الذي خرج، حاملًا معه روحًا ارتفعت إلى عنان

السماء تاركةً الجسد الفاني أسفلها. تذرو ترابه الرياح.

* * *

عَبَر الجدران في خفة إلى داخل ذلك المنزل، بينما يستعد لتنفيذ مهمته. لم يعد يحتاج الأمر أيّة استعدادات خاصة، فهو يفعلها مرَّات لا يستطيع إحصاءها.. ولم يفكر يومًا في ذلك. لقد تحول إزهاق الأرواح لديه من حدث يستحق التأمل إلى دافع قوي جدًّا للملل. شحذ جسده همته الملولة ببعض النبضات القلبية الزائدة كنوع من الواجب ليس أكثر.

عندما صار على الجانب الآخر من الجدران حيثُ الداخل، وجد خادمة آلية تتحدث مع رجل يبدو أنه طبيب.. وجد زوجة تبكي وبجوارها طفل يصرخ منكفئًا على نفسه، فخيّل إليه أنه لم يفهم ماذا حدث.

دخل إلى غرفة النوم، فأطلق جهاز تحديد الهوية بداخل العدستين الرقميتين اللتين يرتديهما ضوءًا أخضر - بأن ذلك الراقد أمامه في سلام هو الهدف المطلوب.

استعد بسلاحه، وقبل أن يُطلقه، ظهرت إشارة حمراء على عدستيه، وتجسدت أمام عينيه رسالة بنفس اللون:

"الهدف المطلوب: ميت"


رؤى الأيام الأخرى

1- أغسطس ـ 2008 / 11شعبان 1429هـ

من الغريب أن يأتي عجوز في سني الآن ويقرر كتابة مذكراته. فما زلتُ أعتبر كتابة المذكرات الشخصيّة عملًا جينيًّا يبدأ مع النمو ولا ينتهي إلّا بالممات. أو كما يقال: من المهد إلى اللحد.

أما في حالتي هذه. فها أنا أبدأ كتابة مذكراتي بعد نهاية النمو وليس بدايته كما هو مفترض! ولكنه الشعور بالفراغ الذي يسيطر على روحي العجوز كجسدي الهرم. لذا أحب تشبيه الأمر كنوع من المراهقة المتأخرة التي تصيب البعض منّا، فيعتقد أنه استطاع مداواة شروخ الزمن المتناثرة بجسده بنوع صاخب من الميول والعواطف الكاذبة.

السؤال الذي أطرحه بيني وبين نفسي الآن.. وهنا على الورق: لماذا؟ لماذا قررتُ أن أكتب مذكراتي؟

ولكن الإجابة على كل حال جاهزة: لا يوجد سبب. فلستُ

ذلك الشخص المهم الذي يلوّن بذكرياته وخبراته العديدة أنسجة الورق لتثبيتها، بدلًا من الاحتفاظ بها على جدران الذاكرة البشرية التي تتداعى سريعًا مع انجرافات الزمن ومصائب الدنيا. فالعبد لله ليس سوى أستاذ متقاعد في مادة الفيزياء بمدرسة الثانوية بنين. أقيم في المنصورة بحي الجلاء ولم أر في حياتي كلها فيلا إلّا في المسلسلات.. وجمصة كانت أبعد مكانٍ ذهبت إليه.

لا أملك من زاد الدنيا سوى زوجة كريمة تحيا في كنفي وأحيا في كنفها، وابنة غالية عاونني الله على تزويجها. حياة عاديّة هي التي عشتها.. لا يوجد بها شيء خاص اللهم إلّا أيام الطفولة التي لن تُعوض مهما عاش المرء وكيفما عاش. فالطفولة باختصار هي البراءة. ربما الوصف تقليدي، ولكن البراءة تخفي في طياتها الكثير من المعاني والأحاسيس التي لا تصفها كلمات. بلغة الرياضة نجد أن الطفولة = براءة = أوتار نفس تُختبر لأوّل مرة ككمان جديد تبدأ الدنيا عزف لحنها الخاص عليه.

لا أملك من زاد الدنيا سوى معاش يُبقينا على قيد الحياة.. وهذا يكفينا بل يزيد. فعندما تصبح عجوزًا مثلي، ستجد زُهدك في

متاع الدنيا تلقائيًّا وطبيعيًّا كشروق الشمس، كأنما لم تكن تبغي تلك المُتع يومًا. ستكف عن اشتهاء الطعام لأنك سئمْتَ ذلك.. ستكف عن اشتهاء الصحبة والأحاديث المرحة.. بل ستكف عن الحزن.. وربما عن الأحلام أيضًا!.. ستكف عن أشياء كثيرة لأنك خبرتها طوال حياتك حتى باتت مملة وستتعجب يومًا من أنها كانت تستحق كل هذا العناء.

عندما تصبح عجوزًا مثلي، تصبح دقات الساعة هي كل ما يعني لك الزمن. تجدك تزدرد الدقائق بصعوبة بالغة.. خاصة عندما تكون وحيدًا. نعم لدي زوجة أطال الله لي في عُمرها، ولكنني أعتبرها وأنا روحًا واحدة تقف أمام تيارات البحر القادمة.

في أيام معدودات من الأسبوع تزورنا (سلمى) ابنتنا. وفي تلك الأحيان نقضي أفضل أوقاتنا على الإطلاق معها ومع حفيدنا (إبراهيم) الصغير. في تلك السويعات القليلة تنزاح أمواج وحدتنا بعض الشيء مُفسحةً الطريق لحياة حقيقيَّة لنا كبشر من لحم ودم، وليس من عظام وجلد بلا روح. ليلًا يأتي زوجها المهندس ليلتقطها، ويلتقط روحنا معهما.

أما حصتنا من المرض، فالحمد لله هي معقولة وليست فتاكة. حصتي المرضية الضغط وحصة (أم سلمى) السُكر والميّة الزرقا. كأنما تتقاسم أرواحنا المرض حتى تُخفف من أثر الدنيا على بعضنا البعض.. فأحميها وتحميني.

أما (سلمى) ابنتنا التي جاءت إلى العالم بعد طول انتظار فهي

إنه العشاء يؤذن.. الله أكبر.. علي أن أذهب لأتوضأ ذاهبًا إلى مسجد (الرحمن).

وسوف أستكمل حديثي لاحقًا.

* * *

2أغسطس ــ 2008 / 12شعبان 1429هـ

بعد صلاة العشاء عُدتُ للبيت وجلستُ أتحدث مع (جليلة) حتى نمتُ وربما نامت هي كذلك. في هذا السن ينام المرء في أوقات ليس من المفترض النوم فيها .. ويستيقظ في أوقات ليس من المفترض أن يستيقظ فيها أيضًا.

لا أذكر في الحقيقة شيئًا من حديثي معها. وعمومًا ليس هذا

بالشيء المهم فأحاديثنا جفت منذ زمن. عندما تحيا وتأكل وتشرب وتنام مع شخص لأكثر من ثلاثين سنة يصبح من الهراء أن تطالبه الآن بحديث شيّق. فأنت تحفظه وهو يحفظك وحتى ما كان يمكن قوله بالكلمات لم يعد يتطلب أكثر من نظرة عين أو هزّة رأس .. أو حتى فكرة تطوف .. فقط تطوف .. في خيالك.

الوقت الآن شارف على الفجر.. بمقدوري أن أشم رائحة نسيم الفجر الرطبة المتسللة عبر فرجة الشيش.

ماذا قلنا بالأمس؟ لحظة لأراجع ما كتبت..

الآن سألتني (جليلة) عما أفعل، فقلتُ لها إنني أكتب مذكراتي. نظرت لي باستعجاب وهي تقول لي مداعبة:

- إنتا اتجننت يا راجل؟!

فقلت لها ضاحكاً:

- وماله يا ستي لما نتجنن الوقتي .. ماحنا كبار بقا وحقنا نخرف!

ضحكتها حركت شخاليل صدرها، فكحت مرتين أو ثلاثا. ثُم

نظرت لي بما يعني: ما أنا عارفاك لما تطلع في دماغك حاجة.. أنتا حر.

ثُم سألتني:

– عايز شاي؟

– ياريت..

أومأت برأسها الصغير وتركتني.. معكم أيتها الأوراق!

أما أنا فنظرتُ لها بضع لحظات وهي تستدير لتذهب إلى المطبخ وتحضر لي الشاي كأنما أنظر لها لأول مرّة: العباءة التي بدت كستار عملاق تخفي جسدها المصوص.. شعرها الأشيب تمامًا كغزل البنات مُغطى بإيشارب أخضر.. بشرتها البيضاء المُتجعّدة.. عيناها السوداء سابقًا الرمادية حاليا زائغة ذائبة.

لقد كبرت يا (جليلة) .. لقد كبرنا يا عزيزتي.

(جليلة) هي الأمنية الوحيدة الذي استطعت تحقيقها في حياتي العريضة. زواجنا كان خليطًا بين زواج الصالونات بالزواج الذي عن حب. مصادفة سعيدة هي التي جمعتنا معًا إلى يومنا هذا.

لقد خطبتها أمي - رحمها الله- لي دون أن أراها بعد. وعندما رأيتها أدركتُ أن اختيارها كان دقيقًا إلى حد مدهش. من الغريب أحيانًا أن تُحقق الصدفة أحلامك.. خاصة فيما يتعلق بشريك العمر. تظل تبحث عنه في عالم الأحلام حتى تجده أمامك في عالم الواقع بسهولة مدهشة.

وهكذا تم الأمر بسلاسة لم أفلح في تحقيق أحلامي الأخرى بها. أو ربما كانت الدنيا تأخذ مني لتعطيني. كانت عطايا الدنيا واحدة .. وكانت عطايا الدنيا "جليلة".

ثُم أتم الله نعمته عليّ بفرع آخر من فروع سعادتي البسيطة في هذه الدنيا الواسعة. كانت الفرحة هي (سلمى) ابنتي الوحيدة التي أنجبتها بعد خمس سنوات من المحاولات. كان ذلك بعد نصر أكتوبر في العاشر من ديسمبر لعام 73 المجيد. ومن ثم تفرّعت شجيرة سعادتي ببرعم جميل آخر هو (إبراهيم) حفيدي.

كما قلتُ، كانت أحلام شبابي كثيرة تمنيتُ تحقيق ولو بعضها. فقد كانت أمنية حياتي أن أصبح عالمًا، وكانت لدي الكثير من الطاقات التي تؤهلني لذلك. لكنها الظروف التي تضرب مسار

حياة المرء لتُصحّر بقاعًا، وتُغرق بقاعًا أخرى.. فتتغير منجرفاتها.

كنت في سنتي الثانية بكلية العلوم عندما توفي أبي. وبصفتي الابن الأكبر كان عليّ الكثير من المسؤوليات تجاه الأسرة المنفرط عقدها والمكونة من أمي وأختي الصغيرة. كان علي أن أعمل بالإضافة إلى دراستي، ولذا كان من المتوقع ألّا أحقق تقديرًا جيدًا في الكلية.

حكاية تقليدية هي ولكنها تحدث كثيرًا.. ربما من ذلك استمدت التجربة ألمها، فكأنها تقول لك: كنت تظن أنك أكبر مني؟ أنت واهم إذا فعلت!

من الرهيب أن تضطر يومًا إلى توديع أحلامك رغمًا عنك.. تراها تبتعد دون أن تُحرك ساكنًا.. بل دون حتى أن تشعر بذلك. فعندما يرتبط مصير أقرب الناس إليك بمصيرك، تموت أحلامك قبل أن تنمو، فتفقدها؛ لأن غريزة البقاء لديك أقوى من غريزة الطموح.

على أنني اخترتُ مجالًا يحمل مسحة من حلمي القديم. وهكذا صرتُ مدرسًا للعلوم ثُم مادة الفيزياء في أواخر عهدي المهني. عندها عاهدتُ نفسي أن أكرس كل ما بداخلي من جهد لأذكي نيران

العلم في نفوس تلاميذي.. وكان هذا ما فعلت وربما كان هذا إرثي وعزائي الوحيد. لم يكن ذلك هو زمن الدروس الخصوصية المنتشرة الآن والتي لم أحبذها قط. لذا كان دخلي الوحيد هو المدرسة.. وكان كافيًا وقتئذ.

بعد تخرجي من كلية التربية وبدء عملي. تزوجت أختي (سامية) زميل دراستها بكلية التجارة (محمد)، وبدآ رحلة الكفاح. سافرا للخليج متنقلين بين بقاعه، وكانت تراسلنا في الثلاث السنوات الأولى، ثُم بدأت الإرساليات تقل وتقل حتى انقطعت أخبارها عنّا وانقطعت أخبارنا عنها في النهاية.

أما أنا فتزوجت (جليلة) بعد سنة أخرى.. وكان ما كان.

لحظة..

وضعت كوب الشاي بجواري على المكتب الصغير، وقالت:

- متنساش قرص الضغط..

أجبتها مُبتسمًا:

- حاضر..

ألقت نظرة صامتة على الأجندة التي أكتب فيها، وانعكس نور الأباجورة الصغيرة من على الورق مُلقيًا بألوانه الشاحبة على وجهها الذي ما زلت أراه جميلًا رغم كل محاولات الزمن الغادرة لسلبه سحره. صاحب الضوء الشاحب ظلال أخرى جاست الوجه المُحدق فبدت متسقة متناسقة. اللوحة الناتجة عنوانها: الجمال العجوز.

تركتني قائلةً من خلف ظهرها:

- لو عايز حاجة ابقى قولي.. أنا قاعدة في البلاكونة..

- حاضر..

وضحكتُ في سري.

لحظة لآخذ قرص الضغط مع رشفة شاي..

الله! تتمازج الآن رشفات السائل الساخن بالهدوء والضوء الخافت ومع نسمات الفجر الرطبة، لتبعث دفئًا لذيذًا في فؤادي يتحرّك متغلغلًا في أوصالي..

والآن دعنا نعد لحديثنا مرّة أخرى..

من الظلم أن أقول إننا وحيدان تمامًا رغم كل شيء. فالكثير من جيراننا يأتون لـ(يشقروا) علينا من حين لآخر. ولكن الوحدة التي نعانيها ليست وحدة العزلة عن الناس.. هي وحدة يعلمها كل من هو في سننا الطاعن. تلك التي تأتي من داخل طيات ذاتك، من أغشية قلبك، فتتملكك حتى لو كنت محاطًا بآلاف البشر.

كما هنالك الصبي الجميل (أحمد) ابن (السمنودي). دومًا ما يأتينا هذا الصبي ابن الحادية عشرة ليجالسنا عصرًا.. حتى إنني و(جليلة) نعتبره ابننا الذي لم ننجبه. شبابه الممزوج بطفولته في ملتقى سنه المراهق استطاع بوسيلة سحرية التعشيق مع الفراغات التي تركتها السنون في أرواحنا. روحه المرحة والوقورة في الوقت ذاته استطاعت ملء فجواتنا العجوز المنهكة، فتُسلي وحدتنا التي عزلتنا عن العالم.

عندما تنظر لعيني (أحمد) ترى فيهما شيئًا يفتقده الكثير بل معظم الأطفال التي تعاملت معها. يقول أبوه إن عقل الولد أكبر من سنه، بينما ترفض أمه ذلك في نوع من التحفظ الذي لا يخفى على الجميع أنه مُجرد خوف من الحسد.

إنني أكاد أرى أمامي الآن هذه اللمحة في عينيه، عندما يقص علينا أخبار الشارع والمدرسة، وعندما يمرح معنا، وعندما أحكي له عن حياتي المملة. هذه اللمحة التي تقول: إنني أفهم.. أنا أكبر مما تتخيلون. باختصار ما تراه في عينيه وخلجاته هي حكمة وتفهُّم نادران. كأنما تتوارى روح رجل ناضج خلف جسده المراهق الصغير.

إنه أذان الفجر.. إلى لقاء قريب بإذن الله.. إذا كان في العمر بقيّة.

* * *

Tuesday, 14 August 2008 -3

صباح الخير!

الساعة الآن الثانية عشرة وخمس دقائق بعد منتصف الليل.

فترة طويلة انقضت لم أمسّ فيها أوراق ذكرياتي مداعبًا إياها بذكريات وأحداث حياتية جديدة مُنشطًا لغتي العربية التي كدتُ أنساها لولا ثرثرتي على الورق.. فلم يكن لي وقت ولا بال لذلك. واليوم قد نويت أن أحرّك سن القلم الذي جفّ مداده من طول

الغياب.

كان اليوم أو أمس بمعنى أدق حافلًا. فقد قمنا اليوم -أنا وزميلي (فرانك)- بوضع سيناريو التشغيل واللمسات النهائية على الآلة. وقد حددنا أول ميعاد للتجربة غدًا.

هذه التجربة التي إذا تمت بنجاح ستعد كشفًا غير مسبوق في تاريخ الفيزياء الحديثة. ستُكتب أسماؤنا بأحرف من نور في التاريخ مع العلماء الأجلّاء.

عندما أفكر في كل هذا الآن.. أشعر أنني أهذي! الحماس ينتاب كياني ولا أعتقد أنني سأستطيع النوم.. فمن ذا الذي ينام ويعلم أن مشروعه الأكبر سيتحقق غدًا؟

آآآه لو أتمكن من اختراق الزمن إلى تلك اللحظة!

بإذن الله ستنجح.. معادلاتنا واختبارات فريقنا كلها تؤكد ذلك.. ستنجح.

سأذهب لأغيّر ملابسي وأضع شيئًا آكله في فمي.. فالجوع يقرص معدتي منذ فترة لا بأس بها وقد كنتُ أخرسه متحاملًا.

* * *

ها أنذا أعود مرّة أخرى..

الآن يستطيع المرء تفريغ ذكرياته بصفاء بال. فقد قررتُ ألّا أنام الليلة وسأقضي الليل بصحبة الأوراق والذكريات. أرتشف منها وقتًا طويلًا يقلّني إلى حيثُ تجربتي، وترتشف مني ذكريات وخواطر شتى تسيل في عقلي الآن مطالبةً بالانسكاب.

حلم حياتي الذي ما بعده شيء على بعد عدّة ساعات مني.. يا للروعة.

تمنيت الآن أن تكون زوجتي السابقة معي، لترى ما وصلتُ إليه، ولتعلم أنني كُنتُ أضحي بعقلي وأعصابي وجسدي من أجل العلم.. ومن أجلها.. من أجل أن يكون لي اسم تُنسب هي له بافتخار. وكي تقول في كل المحافل بصوت واثق: أنا (هيلين) زوجة العالم الكبير رشاد مصطفى.

ولكنها هي التي اختارت طريقا آخر.. لا بأس. على الأقل سأصنع المجد لابني الوحيد (محمد). (محمد) يا حبيب قلبي..

عليك أن تفتخر.. فاسم أبيك سيوضع بجوار (ماكس بلانك) و(ألبرت آينشتاين).. قريبًا جدًّا.

أكتب هذه الكلمات بيدين معروقتين مهزوزتين من الحماس. هذا حماس شديد لا يستوعبه جسدي العجوز الذي تجاوز الستين. ولكن عقلي بالتأكيد يستوعبه .. وإلّا ما ظللتُ متماسكًا إلى الآن.

ذلك النجاح سيعوضني عن الكثير من سنوات الوحدة التي قضيتها. سنوات طويلة تحاملتُ فيها على نفسي، مُغلقًا فيها على قلبي وآلامي كي أصل إلى حلمي. في رحلتي الطويلة خذلني أشخاص شتى لأسباب عديدة. منهم من فعلها بإرادته كـ(هيلين) ومنهم من كان الأمر خارج إرادته كأبي الذي توفي في أوّل سنة لي في الولايات، كذلك أمي التي توفيت بعده بعامين، وأختي التي سافرت مع زوجها إلى السعودية ولم أعد أسمع عنها.

في حياتي الطويلة لم أعرف سوى عملي وعملي فقط. وهذه كانت نقطة الخلاف بيني وبين زوجتي السابقة، فتم الانفصال كما سبق أن ذكرتُ هنا منذ أمد بعيد. بعد الطلاق عاش قلبي الرهبنة وضغط على آلامه واقفًا.. نسيت حبها أو حاولتُ تناسيه.. وقمتُ

أستكمل مشواري إلى هدفي، الذي اتضح لي أنه الشيء الوحيد المتبقي لي في هذه الدنيا.

أكاد أرى الآن الماضي يمر أمام عيني. أرى ارتباكي ورهبتي وأنا على الطائرة الراحلة إلى الولايات المتحدة مع بعثة الكلية. أرى سنوات عمري كقوام شمعي يذوب باستمرار مع توالد الأيام الباردة القاسية عليّ. أرى يوم لقائي بـ(هيلين). فقد كانت معيدة بكلية العلوم بفيلادلفيا عندما تلاقت عينانا ومعها قلوبنا. هنا ذابت الفوارق وتوحدت الثقافات وتاهت اللغات مع تمازج عرقي العربيّ مع عرقها الإنجليزيّ. والتقى كياننا في أسرة واحدة لم تلبث أن تُوجت بابني (محمد) الذي لديه الآن ولدان من زوجته المصرية الأصل (دينا) والتي تعرّف عليها هنا كما حكى لي يوم زفافه.

كما أتذكر الآن يا (هيلين) صدمتي عندما هجرتني وطلبتِ الطلاق.

أنتِ؟! أنت دونًا عن كل الناس كان ينبغي أن تقدري.. كان ينبغي أن تتفهمي. إنكِ باحثة أكاديمية وتعرفين جيدًا معنى روح العالِم! ولكن يبدو أن الدراية وحدها لا تكفي في معترك الحياة.

كان النصف الأول من المقطع السابق هو أحد عباراتي المتحشرجة التي قلتها لها وقتئذ. أما النصف الثاني فكان ردها عليّ..

"الدراية وحدها لا تكفي في معترك الحياة.. أتمنى أن يتم الأمر بهدوء وأن نتصرف حيال الأمر كناضجين"

ناضجين؟! كانت تقول العبارة وعيناها الزرقاوان تكتسب لمعانًا وعمقًا جعلها أكثر برودة عن ذي قبل. تتحدثين كما لو كُنت تؤدين دورًا ما في أحد أفلام هوليوود!

وقتها حدّقتُ في عينيها التي صارتا باردتين، محاولًا إذابة ذلك البرود للوصول لقلبها ومعرفة مشاعرها الحقيقيّة، ولكن عينيها كانت كقلبها مُحكمة الإغلاق.

وكان لها ما أرادت، رغم الجروح العميقة التي أصابت كياني من جرّاء ذلك.

أتذكر لقاءنا الأخير يوم زفاف ابننا حيثُ قلتُ لها باشتياق شاعرًا بمدى وضوحه في خلجاتي وصوتي وحركاتي:

- كيف حالك يا (هيلين)؟ وكيف حال زوجك؟

فقالت لي مُبتسمة في مجاملة:

- في خير حال .. وأنت؟

رددتُ:

- وأنا أيضًا الحمد لله.

هنا أتى زوجها (جون) من خلفها، فسلّم علي بحرارة كنوع آخر من المجاملة وقال مربتًا على كتفي:

- كيف حالك أيها العالم الكبير؟

عندما أتذكر كل هذا الآن، أجدني كنت أتمنى أن أقول له: أنا بخير حال أيها الأحمق.. فقط اترك (هيلين) لي!

كان رفيق دربي الحقيقي وسط كل تلك الأعاصير التي انتابت حياتي الشخصية هو زميلي (فرانك مورسن) الذي يعمل معي في نفس المشروع. كان لي بمثابة الأخ والصديق في الحياة.. كما كان بمثابة عقل ثانٍ يفكر معي في العمل. عرفته منذ ..

يبدو أن حماستي كانت أكبر من عزيمتي التي بدأت تخور

الآن. فجسدي يصرخ مطالبًا بالراحة .. وعيناي بالكاد تريان..

إذن يكفي هذا الليلة.. وسوف أكمل غدًا بعد التجربة.. الحاسمة.

إلى لقاء أيتها الأوراق.

* * *

أغسطس ـــ 2008 / 12شعبان 1429هـ

بعد صلاة الفجر سادت روحي سكينة غريبة كأنما غُسل قلبي بالماء والبرد. فانتظمت دقات قلبي كما لم تفعل منذ أمد، وتحسنت حركة مفاصلي بصورة ملحوظة. شعرتُ فعلا أنني على خير ما يُرام.

كانت حالة غريبة من الرضا والسلام لم تنتبني من قبل. ربما هذا يعود إلى الصلاة في حد ذاتها. فأنا أحاول الخشوع قدر المستطاع وصارت تلك المسألة هينة كثيرًا عن ذي قبل. أيام شبابي عندما مرّت علي بعض الأوقات التي لم أكن منتظمًا فيها في الصلاة، رغم تنشئتي الدينية القويمة. خاصة تلك الفترة التي سبقت وفاة والدي.

الحمد لله على كل شيء.. فعلا تلك العبارة هي مفتاح الرضا

كما قال لنا كل السابقين.

سلمتُ على الحاج (عبد المنعم) والدكتور (سالم) أمام باب المسجد، ثُم أبحرت قدماي بخطواتي المتأنية عبر هدوء الفجر الرطب إلى بيتي الذي فيه كل عالمي. بدت صفوف المحال المُغلقة في الضوء الأزرق اليافع كحُجّاج يسبحون للذي بيده الملك، طالبين منه رزقًا واسعًا مع نفحات اليوم الجديد.

بنفس الهدوء والراحة وبنفس الخطوات المتأنية (والتي لا أملك غيرها) صعدتُ السلّم ودلفت إلى مستقري، حيثُ لفحت أنفي رائحة البيت المميزة. لكل بيت رائحته المميزة جدًّا التي تكسبه سمتًا خاصًّا كملامح البشر.

عندما رأتني قالت (أم سلمى):

- حرمًا..

- جمعًا إن شاء الله يا (أم سلمى)..

وداعبتها قائلًا:

- وعقبال الحج إن شاء الله..

ضحكت بافتعال وقالت:

- أيوة أيوة .. ما هي الأحلام مش بفلوس..

- على رأيك..

- ماشي يا سيدي .. رايح فين؟

قلتُ لها وأنا أجلس على المكتب الصغير بعدما فتحتُ الشرفة لنور الصباح:

- أكمل كتابة..

ضحكت هذه المرّة بصدق وقالت:

- أفيد!

وقبل أن أعود إليكم ابتسمتُ قائلًا لها:

- بقا كدا!

كما ترون صارت أحديثنا مُجرد مناوشات هادئة.. وهذا يكفي جدًّا.

سألت بينما أنا أفكر فيما سوف أكتب:

– عايز أعملّك حاجة؟

– كتر خيرك يا (أم سلمى)..

يبدو أنني قد غفوت وسط لجّة أفكاري.. اعذروني.

فقد أيقظتني للتو (أم سلمى) قائلةً:

– ادخل نام جوّه يا حبيبي..

ولكنني رفضتُ نافضًا رأسي:

– خلاص أنا فقت أهو.. سيبيني بس أكمل..

جاوبتني، وهي تهُم بالذهاب:

– خلاص إنتا حر.. هسيبك تكمل.. تكمل نوم!

– ملكيش دعوة يا ستي أنا فقت خلاص!

نظرتُ لساعتي.. كانت الثامنة والثُلث. نظرتُ للدنيا من الشرفة فرأيت ضياء الصباح يملؤها.

مهلًا

* * *

Tuesday, 14 August 2008 -3

لقد فعلاها! فعلها رشاد مصطفى وفرانك مورسن!

نجحت التجربة! نجحت!

أحاول أن أصدق ولكنني أعجز عن ذلك! أحاول أن أهدأ حتى لا تقتلني الفرحة.. فأنا لا أريد الموت الآن.. ليس قبل أن أفرح بتحقيق حلمي.

في الثامنة والربع صباحًا، كُنتُ جالسًا على الكرسي المعدني داخل "الحقل" كما نسميه والذي كان عبارة عن حيِّز كروي معدني. له لون أبيض وحجم صغير بحيث يستوعب الكرسي والشخص الجالس عليه "والذي هو أنا" في تلك الحالة.

قمتُ بالتأكد من تثبيت (خوذة الاتصال) الشبيهة بالبيضة على رأسي، فشعرتُ بثقلها على رأسي الذي لا يضاهي ثقل التجربة ونتيجتها على روحي. أخذتُ نفسًا عميقًا في استعداد، فحمل النفس رائحة معدنيّة خفيفة تنتسب للمكان الذي أشغله. وكان قلبي يدق بعنف حتى إنني خشيت الانهيار من فرط الانفعال.

ألقى (فرانك) نظرة سريعة على الأسلاك الخارجة من جانبي الخوذة كشرايين سميكة تمد البيضة بالحياة أو تمد (الخوذة) بالطاقة بالإضافة لتعليمات الكمبيوتر. ثُم بعينين واثقتين نظر في عينيّ، وقال مُبتسمًا:

- ready؟

بفم مرتعد وحلق جاف أجبته:

- ready.

ربت على كتفي، قائلًا:

- Okay

وخرج من مرمى بصري عندما خرج من الكرة الصغيرة مُغلقًا بابها خلفه. من مكاني سمعتُ ضربات يديه على لوحة الأزرار، حيثُ يقوم بتجهيز المعادلات الخاصة بالآلة، وسمعتُ صوت (بيل) يتحقق من كمية الطاقة المتدفقة إلى المعالجات.

بعد قليل -دقيقة أو أقل- بدأ (فرانك) يعد تنازليًّا، ومع تتابع صوته بدأ أنين مولدات الطاقة يتصاعد باستمرار.. حتى..

"3.. 2.. 1.. now!"

.. وساد الظلام أركان عقلي.

بعد مدة لا أعلمها بدأتُ أشعر بذاتي كسحابة غازيّة تطوف في دوامة من العدم. ثُم لم ألبث أن شعرتُ بدفء عجيب يتسلل إليّ .. وبدأ كياني يشعر بمروري إلى شيء حيّ آخر..

ثُم..

تلقيت اتصالا من (فرانك) الآن، لذا عليّ أن أذهب. فسوف نُقيم احتفالا صغيرا بمناسبة نجاح الاختبار الأوّلي للتجربة.

* * *

أغسطس ــ 2008 / 12شعبان 1429هـ

الساعة الآن: العاشرة صباحًا.

الآن، وبعدما استعدتُ روعي. سأحكي لكم أيتها الصفحات البيضاء- التجربة المدهشة التي مررتُ بها اليوم، أثناء آخر لقاء لنا في الثامنة والثلث صباحًا.

كنتُ قد بدأتُ أفيق من سِنتي مُفكرًا فيما سوف أكتب وما سوف أنقله من خزائن ذاكرتي إلى لوحات الوجود، عندما تجمّدت أفكاري دفعة واحدة كأنما قبضت يد فتيّة على مخي وأعصابي، فأغلقت بوابات عقلي إلى عالم الوعي. فلم أعد أرى أو أسمع.. ولم أعد أحسّ على الإطلاق. ولكن نقطة صغيرة في عقلي كانت لا تزال تعمل، وتعي بما يحدث لي بصورة أو بأخرى.

بدأت تلك النقطة الصغيرة من الوعي في الانتشار والتوسع ببطء، فبدا الأمر لي كأنما أرى أحاسيسي وكياني من خلال تليسكوب طويل من الظلام. كان الضوء الذي شعرتُ بأنه مخرجي إلى العالم الذي أعرف – يقترب.

طوال ذلك الوقت كنتُ قد فقدتُ الإحساس بالزمن. فبدا من الطبيعي أن أنتظر الضوء المقترب.. كما بدا من الطبيعي أن يستهلك الضوء الآماد كلها حتى يصل إليّ.

بنفس الشعور الخاوي استقبل عقلي عودة الوعي. حينها – بصعوبة– شعرتُ بشفتيّ تتحركان لتقولا شيئًا لم أعزم أو حتى أفكر في قوله.

تدريجيًا بدأت تعود إليّ حواسي، ولكنها أبدًا لم ترجع إلى مستواها السابق في تلك الـ. لم أدر ما هو الوقت الذي استغرقته تلك التجربة الفريدة. وقتئذ لم تعد حواسي إلى العمل بكامل طاقتها، ربما لأنني شخصيًّا لم أكن أركز فيها. فقد كانت هنالك بقعة جديدة داخل رأسي تتعاظم، حاملةً معها رؤى ضبابيّة شبيهة بالأحلام.

أتعرف تلك الحالة التي تنتابك مع التفكير المتعمق الشديد؟ عندما تشعر أن رأسك انعزل عن العالم وأنك ترى أفكارك سابحةً أمام عين عقلك؟ كان ما مررتُ به أقرب إلى تلك الحالة. قلتُ أقرب وليس مثل تلك الحالة. فهو لم يكن نوعًا من التفكير بأي حال. خاصة عندما بدأ يمازج روحي شعور جديد. شعرتُ أنني شخصين داخل بعضهما البعض. وأعني بالعبارة الأخيرة أنني لم أكن أعلم – في البداية– هل أنا الذي بالخارج و(الآخر) هو الذي بالداخل أم العكس.. حتى لم أكن أعلم يقينًا أيّهما (أنا).. فربما أنا (أنا) وربما أنا (الآخر)!

إذا كنتُ أتذكر أيّ شعور طبيعي شعرت به وقتها فربما كان الارتباك. ولكنني لا أذكر بأيّة حال سوى ذلك الشعور المعقد السابق. لأنه لم يقتصر على ذلك، فقد تطوّر الأمر أن (أنا) أو (الآخر) –

أيهما- كان يحادث "نفسي"!

سأنقل لكم مباشرة ذلك التخاطر المدهش الذي تم بين ذاتي الأولى والثانية:

- مرحبًا يا نسختي الأخرى! إذا كنت تشعر بي الآن فأصدر أي لمحة أو فكرة تدل على ذلك.. وأنا سوف أشعر بها..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. ما أنت؟

- أعلم أنك ترتجف الآن وربما تعتقد أنني شيطان أو جن.. ولكنني أخبرك أنك مخطئ .. أنا نسختك الأخرى! أتفهم كذلك الارتباك وعدم الفهم الذي يسري في كيانك كما أشعر .. ولكن لا تقلق فستفهم كل شيء الآن .. أنا (رشاد مصطفى) .. طبعًا كما هو واضح من الاسم فأنا أحمل نفس اسمك لأنني أنت ولكن في عالم آخر.. قل لي.. ماذا تعمل؟

- كنت.. مدرس فيزياء..

- جيد جدًا .. تعرف إذن نظرية الكم وتطبيقاتها المختلفة.. أليس كذلك؟

- نعم .. أتقصد نظرية تعدد العوالم؟

- رائع! هذا ما كنت أقصده بالضبط .. التفسير الخاص بأن خط العالم دائم التفرع إلى خطوط لا نهائيّة غالبًا ما يحمل كل منها نسخًا من نفس الشخصيات الموجودة بالعالم الأوّل.. ولكن مع الفارق أنه عند كل نقطة في مسار العالم تحتمل وقوع أحداث مختلفة.. يتفرع العالم إلى سلسلة لا نهائية من العوالم.. وفي كل عالم يقع أحد تلك الأحداث.

ببساطة يمكننا تشبيه الأمر بلعب الزهر.. هناك ستة احتمالات مماثلة لأوجه الزهر الست.. النظرية تقول إنه مع إلقاء الزهر سوف تتحقق النتائج الست.. ولكن كُل نتيجة في عالم كموميّ مستقل.. هذا بالطبع مجرد مثل تشبيهي.

- ولكن أليس من المفترض أن نفس التأويل هذا هو ما وضع قانون أن كل عالم لا بد ألّا يشعر سوى بالفرضية المتحققة أمامه؟ ولا يستطيع الاتصال بالعوالم الأخرى؟ *

*تأويل العوالم المتعددة Many-worlds Interpretation و النسخ الكموميّة Quantum Copies بالإضافة إلى القانون هي فرضيات علميّة حقيقيّة.

- هذا صحيح.. ولكن القواعد وُجدت كي تُكسر.. وما تشعر به الآن خير دليل على خطأ ذلك القانون.

- إذن أنت تقول.. أن نسختي في عالم كموميّ آخر استطاعت كسر تلك القاعدة الفيزيائيّة وتتصل بي الآن.. وأن ذلك الشخص أو تلك النسخة هي أنت؟!

- نعم!

- ولكن ماذا عنك أنت؟ من أنت هناك؟

- دعنا نُجرّب شيئًا .. سأحاول أن أركز جهودي العقليّة كي أرسل لك ذكرياتي.. وحاول أن تفعل معي المثل .. اتفقنا؟

- اتفقنا.

حاولتُ تخيّل أن كل ما يحويه عقلي من ذكريات كسائل يمكنني سكبه من عقلي إلى عقله. كان الأمر في البداية مستحيل التصديق، وخُيّل إليّ أن ذكرياتي ثقيلة داخل عقلي كمادة جيلاتينية. ولكنني ثابرتُ وحاولت دفع شيء ما! حتى بدأ الأمر..

أنسام رقيقة من ذكرياتي شعرتُ بها تخرج من عقلي

وتنسكب، وفي المقابل شعرتُ بأنسام أخرى تتوافد عليّ. كان إحساسًا ممتعًا حتى إنني تمنيت أن يستمر للأبد.

رغم عدم إحساسي بالزمن هنا إلّا أنني أكاد أجزم أن خيوط النسيم لم تدم طويلاً. فقد بدأت تضعف تدريجيًّا، حتى انقطعت تمامًا بعد فترة لم أستطع تقديرها..

- عليّ قطع الاتصال الآن .. فالتجربة ما زالت في بدايتها لذا لا بد أن نتعامل مع الأمر بحذر .. وداعًا يا نسختي العزيزة.. ومن يدري.. ربما أفضل أن أقول إلى اللقاء.

رنت كلماته الأخيرة بقوَّة متدرجة من الأقوى للأضعف ومن الأقرب للأبعد.. و..

فجأة أفقتُ على صوت (جليلة)، وهي تبكي بجزع قائلةً وسط أنفاسها المتلاحقة:

- (رشاد) يا حبيبي .. رد عليّ.. (رشاد).

انتفضتُ بقوّة مع لمساتها مُحدقًا، ثُم قلتُ بصوت هامس:

- إيه؟ فيه إيه؟

- الحمد لله .. الحمد لله .. رديت الحمد لله..

واحتضنتي بقوّة فتلقيتها مُربتًا على ظهرها الضعيف برفق.

- أنتا كويس؟ .. خضتني عليك ..

سمعتُ صوتها يرن من صدرها الهزيل كورقة إلى صدري وهي ما زالت متعلقة بعنقي، أما أنا فقد بدأتُ أتطلع لعالم المكان التي فقدتها لفترة لا أعلمها. كنتُ على نفس جلستي السابقة على المكتب، وأمامي الأجندة التي أخط عليها ما أقول الآن. ونظرتُ للساعة فوجدتها التاسعة!

أكُل هذا حدث في نصف ساعة فقط؟!

سألتها:

- هو أنا سرحت كتير ولا إيه؟

- بقالي ساعة بنادي عليك مبتردش.. قعدت أهز فيك مفيش فايدة.. مالك؟ حاسس بحاجة؟

- لا كنت سرحان بس..

- سرحان إيه بس دانتا كان شكلك بعد الشر في غيبوبة..

وكنت بتحلم كمان!

– إيه؟

– كنت بتوشوش نفسك بكلام كدا.. الحمد لله عدت على خير.. قل أعوذ برب الفلق.. أبعت حد يشوفلك الدكتور (سالم) يمكن يكون في البيت؟

– لا يا (أم سلمى).. مش مستاهلة والله بقيت كويس..

– الحمد لله.. الحمد لله..

أخذت تمسح على رأسي الأصلع وصوتها يهمس بالمعوذتين وآية الكُرسي. فتركتُ نفسي لها مستسلمًا ومُسترسلًا في أفكاري وذكرياتي؛ القديمة منها والخاصة بي، والجديدة منها والخاصة (به) أو بنسختي في العالم الآخر.

ذكرياته التي تنساب في عقلي الآن تنبئني بمدى وحدته. وحدته لم تكن تكمن في بُعد أحبابه عنه فقط. وحدته كمنت أيضًا في الثلج التي تراكم حول قلبه مع تقلب الدهور وشيخوخة الجسد والروح.

كانت وحدته كوحدتي.. ولم لا فهو نسختي رغم كل شيء. هو مني وأنا منه. أنا مُعادلته الاحتماليّة وهو معادلتي كذلك.. فهنا لا يوجد فرق بين أن أكون أنا قبل علامة "يساوي" أو أن يكون هو الذي قبلها. ربما يكون عالمه موازيًا لعالمي كمُسمى، ولكن عندما أتفكر في الأمر أرى أن عالمينا لم يكونا متوازيين بل متطابقين بصورة أو بأخرى. فقد كان (رشاد) العالِم تمثيلًا فعليًّا لأحلامي التي تمنيتها في عالمي ولم تتحقق، لكنها تحققت في العالم الآخر من خلاله.

رغم كل شيء عليّ الاعتراف أنني لستُ حزينًا؛ فالشخص الذي حقق أحلامي هو مُجرد (أنا) أخرى لي.. صورة أخرى من تكويني.. حالة أخرى من حالتي.. واحتمال آخر من معادلة معقدة عنوانها اسمي ككيان.

ولكنه قال في نهاية اتصاله إنها تجربة، وأنه ربما يكون هناك مرّات أخرى ولقاءات أخرى.. وأنا أصدقه وأنتظره بكل شغف. فربما أستطيع جمع وحدتي مع وحدته لنبثّ بعض الدفء في كيان كلينا.

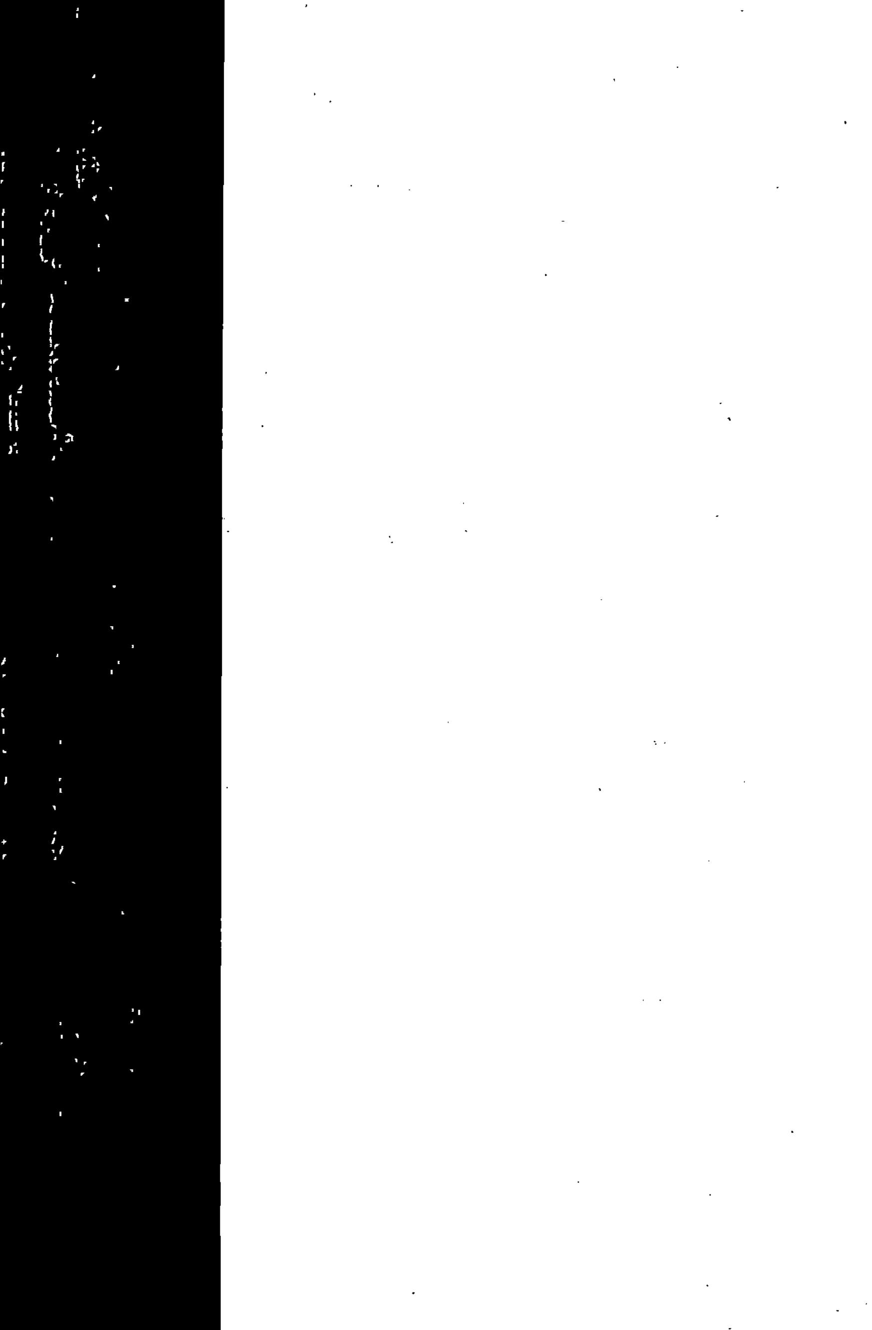
لقد كان توقيت كتابتي لتلك المذكرات مدهشًا كأنما كانت نبوءة مستقبلية عمّا سوف يحدث وعمّا سوف أعلم.. أو كانت تداعيات يَقظة متأخرة لأحلامي القديمة، متبوعة بظهور قوي لها في طرف آخر من الدنيا. ولذلك.. قررتُ أن تكون هذه السطور هي آخر ما أكتبه إلى إشعار آخر. وهذا الإشعار الآخر هو : اتصال جديد من ذاتي الأخرى.

الآن عليّ أن أقول لكم أيتها الأوراق: لقد سعدتُ بصحبتكم في تلك الفترة القصيرة التي قضيتموها معي ومع ذكرياتي.. وذاتي الأخرى.

وأختتم مذكراتي بتحيّتين سوف تُحدد الأيام القادمة أيهما سيكون دقيقًا:

وداعًا.. أو.. إلى اللقاء.





أشباح السايبر

خدمة جديدة تقدمها لكم الشركة الوطنية للاتصالات.. بروتوكول الصوت عبر الزمن.. الآن باستطاعتك مكالمة أحبابك وأصدقائك المتوفين عبر الزمن!.. فقط بمائة وحدة شرائية..

يمكنك تزويدنا برقم الهاتف الخاص بفقيدك والسنة التي كان يحمل فيها هذا الهاتف.. مصحوبا باليوم الذي تريد فيه الاتصال.. شريطة ألا تكون متواجدا برفقة المتلقي وقت المكالمة.. وأن تكون المكالمة قبل عام ٢٠٩٣م.. بعدها سنعطيك موعدا لزيارتنا من أجل إتمام اتصالك.. فقط!..



دار ليلى